دور ابن تيمية

في مواجهة الحملات التترية

جمع وإعداد: أبو الرميصاء الحمصي

المحتوى

المحتوى ٢
مقدمة ٥
منهج البحث ٧
مقدمات تمهيدية ٧
تعريف بشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ٧
_صفاته رحمه الله: ٧
- ملامح عصره: ٧
أشهر مؤلفاته رحمه الله: ٩
المبحث الأول: بناء الحاضنة الشعبية ١١
المطلب الأول: مظاهر التأييد الشعبي: ١٢
١_ إقبال الناس على دروسه عوامهم وعلمائهم : ١٢
٢_ شهادة أهل العلم في محبة الناس له: ١٣
٣_ عظم جنازته: ١٣
المطلب الثاني: أهم العوامل التي أكسبت الشيخ رحمه الله الحاضنة الشعبية والتأييد: ١٤
١_قيمته العلمية : ١٤
٢_أخلاقه الرفيعة وسماحته: ١٦
٣_ بره بأبويه: ١٨
٤_الصدع بالحق: ١٩
٥_صبره على المحن والابتلاءات: ٢١
٦_إخلاصه وانهماكه: ٢٣
٧_الزهد في الدنيا: ٢٤
٨_التواضع: ٢٤
ملاحظة مهمة: ٢٥
المبحث الثاني: بناء مجتمع موحد متماسك صلب البنية ٢٦
المطلب الأول: الخطوات الفعلية لتحقيق تماسك المجتمع: ٢٨
١_ تربية الفرد المسلم: ٢٨
٢_ إخراج الأمة المسلمة من التفرق إلى الاجتماع: ٢٨
٣_ تبني المنهج الإصلاحي: ٣٠
٤_احترام العلماء: ٣١

٥ــ ترسيخ أدب الخلاف: ٣٣
٦ــمحاربة فكر الغلو والتكفير: ٣٤
المبحث الثالث: النزول إلى الميدان والمواجهة بالسنان والبيان ٣٧
المطلب الأول: الإعداد الإيماني والتعبدي: ٣٧
المطلب الثاني: توضيح حقيقة المعركة من الناحية الشرعية: ٣٩
المطلب الثالث: خطاب الأمة جمعاء بحقيقة المعركة: ٤١
المطلب الرابع: الدور العملي للشيخ في مواجهة التتار: ٤٢
١ــتوجه التتار إلى دمشق (٦٩٩هـ) وهزيمة سلطان المماليك: ٤٢
٢ــ موقف ابن تيمية كرجل أزمة: ٤٤
٣ــالتتر ينقضون العهد: ٤٧
٤ــتقوية العزائم وإزالة المنكرات: ٤٩
٥ــالتعامل مع عملاء التتار والصليبيين: ٥٠
٦ــوإن عدتم عدنا: ٥٤
٧ــابن تيمة رجل معركة شقحب بكل المعايير: ٥٥
٨ــ وكان حقا على الله نصر المؤمنين: ٦١
موقف ابن تيمية من القتال تحت راية المماليك ٦٢
بين غزوة الخندق وصمود أهل دمشق بوجه التتار عام ٧٠٠هـ ٦٣
١ــالأحزاب يحيطون بالمسلمين من جميع الجهات: ٦٣
٢ــالابتلاء والزلزلة ترفع الدرجات: ٦٤
٣ــالنفاق يمنع الأمان: ٦٤
٤ــالاستسلام مصلحة موهومة: ٦٤
٥ــعورتنا تنكشف بانهزامنا: ٦٥
٦ــالمنافق الجبان مآله في صف الكفار: ٦٥
٧ــخيانة العهد من خصال المنافقين: ٦٦
٨ــالفرار من الجهاد لا يؤخر أجلا والثبات لا يعجله: ٦٦
٩ــمتاع الدنيا قليل: ٦٦
١٠ــاحذروا المثبطين: ٦٧
١١ــحال المثبطين في السلم والحرب: ٦٧
١٢ــحال الجبان بعد نصر المؤمنين: ٦٨
١٣ــوصدق الله ورسوله: ٦٨
خاتمة: وصايا شيخ الإسلام ابن تيمية لأهل ثورة الشام اليوم ٦٩
١ــ بالصبر واليقين تنال الإمامة بالدين: ٦٩
٢ــ كن رَجل مِلّة لا رَجل دَولة: ٧٠
٣ــمراعاة الائتلاف هُوَ الْحق: ٧٢

٤_الْمحبَّة مستلزمة للْجِهَاد: ٧٣
٥- النصر للدولة العادلة أيا كانت: ٧٤
فهرس المراجع والمصادر ٧٦

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله؛ نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠ - ٧١].

إن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، أما بعد:

فقد جاء هذا البحث تحت عنوان: (شيخ الإسلام ابن تيمية ودوره في مواجهة الحملات المغولية والصليبية) وتأتي أهمية البحث من خلال حاجة الأمة للعالم العامل الذي صار للأسف بضاعة نادرة في زماننا خاصة مع تزايد أزمات الأمة وحاجتها الماسة لمن يحمل رايتها في وجه مغول وصليبي عصرنا، فالمعركة ضد أهل الإسلام لم تتغير وإن تغيرت الأسماء، ودور أهل الحل والعقد وعلى رأسهم العلماء دور محوري في التصدي لهذه الحملات وكشف عوارها وحشد الأمة لمواجهتها بالحجة والسيف.

وعند البحث عن القدوات في تاريخنا لعلماء قاوموا المحتل وحملوا راية الجهاد نجد كثيراً منهم ولله الحمد، لكن كلامنا في هذا البحث سيكون عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كونه عاصر الحملتين الصليبية والمغولية وعملائهم على الأمة، وكان له دور بارز في قيادة الأمة وتوعيتها، وقد أعطانا دروسا في التضحية والفداء ومناصرة الحق والدعوة إليه تحتاج مجلدات طوال، وما هذه الصفحات الفقيرة إلا غيض من فيض عطاءه رحمه الله.

ومما دفعني لكتابة هذا البحث بث الأمل في الشعوب التي نهضت في وجوه الطغاة، وتعريفها بواقع مشابه لواقعنا بما حمله من تآمر وتكالب وجراح وابتلاءات وأحزان، ومع

ذلك لم تَفْنَ أمة الإسلام بل قامت من سباتها بصحوة أهل الصدق والإخلاص أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

نسأل الله عز وجل أن ينفع أهل الإسلام عامة وعلماء عصرنا خاصة بما سنكتبه وننقله ونشرحه من حياة الشيخ المجاهد ابن تيمية رحمه الله.

منهج البحث

لقد اتبعت في بحثي هذا المنهج التاريخي التوثيقي مع بعض التحليل للحوادث التاريخية وكيفية الإفادة منها كدروس وعبر يحتاجها كل عالم في كل أزمة معتمدا على مراجع أهل العلم الثقات من أهل السنة والجماعة من المتقدمين والمتأخرين مع بعض المراجع الأجنبية فعزوت الأقوال إلى مصادرها والآيات إلى مواضعها في كتاب الله عز وجل بذكر السورة ورقم الآية، كما خرجت الأحاديث من كتب السنة مع ذكر حكم أهل العلم عليها من حيث الصحة والضعف.

مقدمات تمهيدية

تعريف بشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

ولد أحمد بن عبد الحليم تقي الدين بن تيمية في حران، الواقعة بين دجلة والفرات عام ٦٦١ واضطر والداه أن يهاجرا به وبإخوته من حران إلى دمشق هربا من التتار، ولما بلغوا دمشق أقاموا بها. وفيها تفتح ابن تيمية على الفكر والعلم.[١]

_صفاته رحمه الله:

كان ابن تيمية مهيبا، أبيض اللون، أسود شعر الرأس واللحية، ربعة في الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهير الصوت، فصيحا، واسع العينين، كأنما عيناه لسانان ناطقان.[٢]

- ملامح عصره:

أولاً: الناحية السياسية: يستطيع الواصف للحالة السياسية لعصر ابن تيمية رحمه الله أن يحدد معالمها بثلاثة أمور رئيسة:

أ - غزو التتار للعالم الإسلامي. ب - هجوم الفرنجة على العالم الإسلامي. جـ - الفتن الداخلية، وخاصة بين المماليك والتتار والمسلمين. وقد ذكر ابن الأثير رحمه الله وصفاً دقيقاً

[١] ((نظرات في حياة شيخ الإسلام وبطله ابن تيمية الحراني)) لمؤلفه: الدكتور عبد الحليم محمد الحسين، ص: ٧
[٢] نفس المصدر السابق _ص: ٧

لذلك العصر، وهو من أهله، فقال: «لقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم: منها هؤلاء التتر: فمنهم من أقبلوا من الشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها". ومنها: خروج الفرنج -لعنهم الله- من الغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر وامتلاكهم ثغرها - أي دمياط -، وأشرفت ديار مصر وغيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم. ومنها: أن السيف بينهم مسلول، والفتنة قائمة».

فأما التتار: فقد كانوا فاجعة الإسلام والمسلمين في القرن السابع الهجري، في سقوط بغداد -وبها سقطت الخلافة العباسية- سنة (٦٥٦هـ) وما قبل سقوط بغداد بسنوات، وما بعد سقوط بغداد حيث كانت هذه الأحداث قريبة من ولادة شيخ الإسلام ابن تيمية، ولا بد أن يكون قد شاهد آثار هذا الخراب والدمار بأم عينيه، وسمع تفاصيله المؤلمة عمن رأوا مناظره وشهدوها وشاهدوها، فمن الطبيعي أن يتأثر قلبه الغيور المرهف بنكبة المسلمين هذه وذلتهم، وتمتلئ نفسه غيظاً وكراهية لأولئك الوحوش الضواري.

وأما ظهور الفرنجة أو (الحروب الصليبية): فقد كانت ولادة ابن تيمية رحمه الله في بداية الدور الرابع لهذه الحروب الذي يمثل دور الضعف الفرنجي وتجدد قوة المسلمين، باسترداد كثير من المدن الشامية الكبرى، وإكمال مسيرة طرد الفرنج من بلاد المسلمين.

وأما الفتن الداخلية: فما كان يحصل بين المماليك وتنازعهم على السلطة وما كان يحصل بينهم وبين التتر المسلمين، وقد كان لابن تيمية رحمه الله مشاركة في إصلاح بعض هذا.

ثانياً: الناحية الاجتماعية: كانت مجتمعات المسلمين خليطاً من أجناس مختلفة، وعناصر متباينة بسبب الاضطراب السياسي في بلادهم. إذ اختلط التتار -القادمون من أقصى الشرق حاملين معهم عاداتهم وأخلاقهم وطباعهم الخاصة- بالمسلمين في ديار الإسلام الذين هم أقرب إلى الإسلام عقيدة وخلقاً من التتر. ونوعية ثالثة: ألا وهي أسرى حروب الفرنجة والترك إذ كان لهم شأن في فرض بعض النظم الاجتماعية، وتثبيت بعض العوائد السيئة، والتأثير اللغوي العام على المجتمع المسلم. إضافة إلى امتزاج أهل الأمصار

الإسلامية بين بعضهم البعض بسبب الحروب الطاحنة من التتار وغيرهم، فأهل العراق يفرون إلى الشام، وأهل دمشق إلى مصر والمغرب وهكذا.

كل هذا ساعد في تكوين بيئة اجتماعية غير منتظمة وغير مترابطة، وأوجد عوائد بين المسلمين لا يقرها الإسلام، وأحدث بدعاً مخالفة للشريعة كان لابن تيمية رحمه الله أكبر الأثر في بيان الخطأ والنصح للأمة، ومقاومة المبتدعة.

ثالثاً: الناحية العلمية: في عصر ابن تيمية رحمه الله قل الإنتاج العلمي، وركدت الأذهان، وأقفل باب الاجتهاد وسيطرت نزعة التقليد والجمود، وأصبح قصارى جهد كثير من العلماء هو جمع وفهم الأقوال من غير بحث ولا مناقشة، فألفت الكتب المطولة والمختصرة، ولكن لا أثر فيها للابتكار والتجديد، وهكذا عصور الضعف تمتاز بكثرة الجمع وغزارة المادة مع نضوب في البحث والاستنتاج. ويحيل بعض الباحثين ذلك الضعف إلى : سيادة الأتراك والمماليك مما سبب استعجام الأنفس والعقول والألسن، إضافة إلى اجتماع المصائب على المسلمين، فلم يكن لديهم من الاستقرار ما يمكنهم من الاشتغال بالبحث والتفكير. ولا ينكر وجود أفراد من العلماء النابهين أهل النبوغ، ولكن أولئك قلة لا تنخرم بهم القاعدة.

وثمة أمر آخر في عصر ابن تيمية أثر في علمه ألا وهو: اكتمال المكتبة الإسلامية بكثير من الموسوعات الكبرى في العلوم الشرعية: من التفسير، والحديث، والفقه، وغيرها. فالسنة مبسوطة، والمذاهب مدونة، ولم يعد من السهل تحديد الكتب التي قرأها وتأثر بها، ولا معرفة تأثير شيوخه عليه بدقة.[٣]

أشهر مؤلفاته رحمه الله:

كتاب تَفْسِير سُورَة الاخلاص مُجَلد

كتاب الْكَلَام على قَوْله عز وَجل الرَّحْمَن على الْعَرْش اسْتَوَى ـــ كتاب الصارم المسلول على شاتم الرَّسُول مُجَلد

[٣] انظر: ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله للدكتور عبد الله بن صالح بن عبد العزيز الغصن

كتاب الْفرْقَان الْمُبين بَين الطَّلَاق وَالْيَمِين _ كتاب الْفرقان بَين أَوْلِيَاء الرَّحْمَن وأولياء الشَّيْطَان

كتاب اقْتِضَاء الصِّرَاط الْمُسْتَقيم مُخَالفَة أَصْحَاب الْجَحِيم _ كتاب الْكَلم الطّيب

كتاب إِثْبَات الْكَمَال _ كتاب الرَّد على تأسيس التَّقْدِيس

كتاب الْجمع بَين الْعقل وَالنَّقْل _ كتاب نقض أَقْوَال المبتدعين

كتاب الرَّد على النَّصَارَى _ كتاب منهاج الاسْتقَامَة

كتاب إِبْطَال الْحِيَل وَنِكَاح الْمُحَلّل _ كتاب شرح العقيدة الأصبهانية

كتاب الفتاوى _ كتاب الدّرّ الْمُلْتَقط

كتاب أَحْكَام الطَّلَاق _ كتاب الرسَالَة

كتاب اعْتِقَاد الْفرْقَة النَّاجِية _ كتاب رفع الملام عَن الْأَئِمَّة الْأَعْلَام

كتاب تَقْرِير مسَائِل التَّوْحِيد _ كتاب الاستغاثة والتوسل

كتاب الْمسَائِل الحموية _ كتاب الْمسَائِل الجزرية[٤]

[٤] الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية للبزَّارُ، (المتوفى: ٧٤٩هـ) ص:٢٦

المبحث الأول: بناء الحاضنة الشعبية

لقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مجدد عصره ورائد الإصلاح وبطل الجماهير، فكانت شعبيته تحرك الجماهير فقد نال تأييد الخاصة والعامة من مختلف الاتجاهات السائدة في المجتمع، وهكذا يجب أن يكون دور العالم في جذب الحاضنة الشعبية وقيادتها في مواجهة الأزمات والفتن والملاحم والاحتلال، فإذا كان للعلماء دورهم الذي لا يقوم به غيرهم، فإن العوام هم وقود المعركة الحقيقي، ومادتها المتفجرة، ودور العوام هو دور الصاعق والمحرك الذي يفجر هذه المادة، فعندما يختار العالم قرار الجهاد والمواجهة فلابد من نظرية حشد وتأييد تجعل من الشعب المسلم يقف وراءه قوة لا تغلب، ومعلوم أن صفات الرسالة المحمدية قامت على جمع الناس وتبشيرهم لا تنفيرهم. قال تعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾{آل عمران ـ١٥٩}.ونجده صلى الله عليه وسلم حريصا على مشورة الصحابة رضي الله عنهم في القرارات المصيرية والمعارك العسكرية حتى أنه صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد أخذ برأي الأكثرية بالقتال خارج المدينة استجابة لرأي الأكثرية مخالفا رأيه الشخصي بالقتال داخلها، وما ذلك إلا لإدراكه صلى الله عليه وسلم أثر الحاضنة الشعبية كقوة لا يستهان بها في قوة الدولة الإسلامية وهيبتها واستقرارها. فالأصل ألا ينفض الناس من حول العالم بل أن يأتي العالم بالناس إلى المعركة. فعالم بدون شعب في معركة الأمة ماذا يفعل؟.

المطلب الأول: مظاهر التأييد الشعبي:

وإذا ما أردنا معرفة قدر التأييد الشعبي لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رأينا ذلك واضحا جليا في عدة مظاهر:

١ــ إقبال الناس على دروسه عوامهم وعلمائهم :

ــعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: "قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا، قَالَ لِجِبْرِيلَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، قَالَ: فَيَقُولُ جِبْرِيلُ لِأَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ رَبَّكُمْ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، قَالَ: فيُحِبُّوهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ". [٥]

وحتى نعرف درجة القبول التي نالها شيخ الإسلام رحمه الله في عصره نلقي نظرة على درس من دروسه العامة في المساجد، فنجد الجمع الغفير من الناس سواء من طلبة العلم المختصين أم من عامة الناس ممن أحب الشيخ ورأى في أسلوبه التدريسي تميزا في الأداء وتنوعا في المادة العلمية تفصيلا وتأصيلا، في فترة عانت كثيرا من فقدان العالم الذي يلتف حوله الناس ويرون به الملاذ الآمن في الفتن والمحن.

قال ابن كثير رحمه الله(ت: ٧٧٤هـ): «فِي يَوْمِ الِاثْنَيْنِ ثَانِي الْمُحَرَّمِ مِنْهَا دَرَّسَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ الْعَلَّامَةُ تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ الْحَرَّانِيُّ بِدَارِ الْحَدِيثِ السُّكَّرِيَّةِ الَّتِي بِالْقَصَّاعِينَ، وَحَضَرَ عِنْدَهُ قَاضِي الْقُضَاةِ بَهَاءُ الدين ابن الزَّكِيّ الشَّافِعِيُّ، وَالشَّيْخُ تَاجُ الدِّينِ الْفَزَارِيُّ شَيْخُ الشَّافِعِيَّةِ، وَالشَّيْخُ زَيْنُ الدِّينِ ابْنُ الْمُرَحِّلِ، وَزَيْنُ الدِّينِ بْنُ الْمُنَجَّا الْحَنْبَلِيُّ، وَكَانَ دَرْسًا هَائِلًا، وَقَدْ كَتَبَهُ الشَّيْخُ تَاجُ الدِّينِ الْفَزَارِيُّ بِخَطِّهِ لِكَثْرَةِ فَوَائِدِهِ، وَكَثْرَةِ مَا اسْتَحْسَنَهُ الْحَاضِرُونَ. وَقَدْ أَطْنَبَ الْحَاضِرُونَ فِي شُكْرِهِ عَلَى حَدَاثَةِ سِنِّهِ وَصِغَرِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ عُمْرُهُ إِذْ ذَاكَ عِشْرِينَ سَنَةً وَسَنَتَيْنِ». [٦]

---

[٥] رواه مسلم (٢٦٣٧)_ بَابُ إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا حَبَّبَهُ لِعِبَادِهِ

[٦] البداية والنهاية، ٣٠٣/١٣

٢ــ شهادة أهل العلم في محبة الناس له:

قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦)﴾ {مريم: ٩٦}

قال مجاهد في تفسيرها: «يُحِبُّهُمْ وَيُحَبِّبُهُمْ إلى الْمُؤْمِنِينَ»[٧]

ولمن أراد أن يعرف مكانة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في وسط الناس فليسأل العلماء عن قدره ومنزلته، وليسمع شهادة عادلة من أعلام ذلك العصر يشهدون لرجل ورث طريق الأنبياء في كسب قلوب الناس.

قال ابن كثير رحمه الله:« وَاسْتَقَرَّ عِنْدَ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ وَخَوَاصِّهِمْ مِنْ أَمِيرٍ وَقَاضٍ وفقيه، ومفتٍ وَشَيْخٍ وَجَمَاعَةِ الْمُجْتَهِدِينَ، إِلَّا مَنْ شَذَّ مِنَ الْأَغْمَارِ الْجُهَّالِ، مَعَ الذِّلَّةِ وَالصَّغَارِ- مَحَبَّةُ الشَّيْخِ وَتَعْظِيمُهُ وَقَبُولُ كَلَامِهِ وَالرُّجُوعُ إلى أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ».[٨]

قال الذهبي(ت: ٧٤٧) -رحمه الله-:«وأخيف في نصر السنة المحفوظة حتى أعلى الله تعالى مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محنته والدعاء له، وكبت أعداءه، وهدى به رجالاً كثيرة من أهل الملل والنحل، وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالباً وعلى طاعته، وأحيا به الشام بل الإسلام بعد أن كاد ينثلم».[٩]

٣ــ عظم جنازته:

ــعَنْ أَبِي الأَسْوَدِ رضي الله عنه، قَالَ: "قَدِمْتُ المَدِينَةَ وَقَدْ وَقَعَ بِهَا مَرَضٌ، فَجَلَسْتُ إِلى عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَمَرَّتْ بِهِمْ جَنَازَةٌ، فَأُثْنِيَ عَلَى صَاحِبِهَا خَيْرًا، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَجَبَتْ، ثُمَّ مُرَّ بِأُخْرَى فَأُثْنِيَ عَلَى صَاحِبِهَا خَيْرًا، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَجَبَتْ، ثُمَّ مُرَّ بِالثَّالِثَةِ فَأُثْنِيَ عَلَى صَاحِبِهَا شَرًّا، فَقَالَ: وَجَبَتْ، فَقَالَ أَبُو الأَسْوَدِ: فَقُلْتُ: وَمَا وَجَبَتْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: قُلْتُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّمَا مُسْلِمٍ،

---

[٧] تفسير مجاهد (المتوفى: ١٠٤هـ) _ص:٤٥٩

[٨] البداية والنهاية، ٥٠/١٤

جلاء العينين في محاكمة الأحمدين للآلوسي (المتوفى: ١٣١٧هـ) _ص: ٢٠

شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ» فَقُلْنَا: وَثَلاَثَةٌ، قَالَ: «وَثَلاَثَةٌ» فَقُلْنَا: وَاثْنَانِ، قَالَ: «وَاثْنَانِ» ثُمَّ لَمْ نَسْأَلْهُ عَنِ الوَاحِدِ."[١٠]

لماذا تخرج تلك الألوف المؤلفة حزنا على ذلك الشيخ الجليل إلا لكونه من العظماء الذين كانت حياتهم خدمة لقضيتهم وفداء لدينهم وحاملين هموم شعبهم قولا وعملا.

قَالَ الشَّيْخُ عَلَمُ الدِّينِ الْبِرْزَالِيُّ (ت:٧٣٩) رحمه الله فِي تَارِيخِهِ: «ثم تزايد الجمع إلى أن ضاقت الرحاب والأزقة والأسواق بأهلها ومن فيها، ثم حمل بعد أن يصلّي عليه على الرؤوس والأصابع، وخرج النعش به من باب البريد واشتد الزحام وعلت الأصوات بالبكاء والنحيب والترحم عليه والثناء والدعاء له، وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم وثيابهم، وذهبت النعال من أرجل الناس وقباقيبهم ومناديل وعمائم لا يلتفتون إليها لشغلهم بالنظر إلى الجنازة، وصار النعش على الرؤوس تارة يتقدم وتارة يتأخر، وتارة يقف حتى تمر الناس، وَخَرَجَ النَّاسُ مِنَ الْجَامِعِ مِنْ أَبْوَابِهِ كُلِّهَا وهي شديدة الزحام، كل باب أشد زحمة من الآخر، ثم خرج الناس من أبواب البلد جميعها من شدة الزحام فيها»

المطلب الثاني: أهم العوامل التي أكسبت الشيخ رحمه الله الحاضنة الشعبية والتأييد:

١ــ قيمته العلمية :

ففي مجال التأليف والإنتاج العلمي، فقد ترك الشيخ للأمة تراثا ضخما ثمينا، لا يزال العلماء والباحثون ينهلون منه معينا صافيا، توفرت منه الآن المجلدات الكثيرة، ومن المؤلفات والرسائل والفتاوى والمسائل وغيرها، هذا من المطبوع، وما بقي مجهولا أو مكنوزا في عالم المخطوطات كثير. ولم يترك الشيخ مجالاً من مجالات العلم والمعرفة التي تنفع الأمة، وتخدم الإسلام، إلا كتب فيه وأسهم بجدارة وإتقان، وتلك خصلة قلّما توجد إلا عند العباقرة النوادر في التاريخ. فلقد شهد له أقرانه، وأساتذته، وتلاميذه، وخصومه بسعة الاطلاع، وغزارة العلم، فإذا تكلم في علم من العلوم أو فن من الفنون ظن السامع أنه لا يتقن غيره،

[١٠] رواه البخاري(١٣٦٨) _بَابُ ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَى المَيِّتِ

وذلك لإحكامه له وتبحره فيه، وأن المطلع على مؤلفاته وإنتاجه، والعارف بما كان يعمله في حياته من الجهاد باليد واللسان، والذب عن الدين، والعبادة والذكر، ليعجب من بركة وقته، وقوة تحمله وجلده، فسبحان من منحه تلك المواهب.

فمن يتصدى لصدارة الموقف بدون خزينة علمية فهو مهزوم وضرره عام على كل الأمة وليس عليه وحده، فصاحب الحجة والعلم هو من يثبت في ميدان النزال، فعدونا لم يعد فقط يحاربنا بسلاح النار بل أضاف له طرح الشبهات على عوام المسلمين ليحيدهم عن المعركة باسم الدين، وسنذكر دور الشيخ مفصلا في هذا الميدان في المبحث الثالث إن شاء الله.

قال الذهبي رحمه الله: «فَرِيدُ الْعَصْرِ عِلْمًا وَمَعْرِفَةً وذَكَاءً وَحِفْظًا وَكَرَمًا وَزُهْدًا وَفَرْطَ شَجَاعَةٍ وَكَثْرَةَ تَآلِيفٍ وَاللَّهُ يُصْلِحُهُ وَيُسَدِّدُهُ، فَلَسْنَا بِحَمْدِ اللَّهِ مِمَّنْ نَغْلُو فِيهِ وَلا نَجْفُو عَنْهُ، مَا رُئِيَ كَامِلا مِثْلُ أَئِمَّةِ التَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ، فَمَا رَأَيْتُهُ إِلا بِبَطْنِ كِتَابٍ».[11]

قال ابن حجر العسقلاني(ت: ١٢٠٠هـ) رحمه الله: «وشهرة إِمَامه الشَّيْخ تَقِيّ الدّين ابْن تَيْمِية أشهر من الشَّمْس وتلقيبه بشيخ الْإِسْلَام بَاقٍ إِلى الْآن على الْأَلْسِنَة الزكية وَيسْتَمر غَدا لما كَانَ بالْأَمْس وَلَا يُنكر ذَلِك إِلَّا من جهل مِقْدَاره وتجنب الْإِنْصَاف فَمَا أَكثر غلط من تعاطى ذَلِك وَأَكْثر غباره فَالله تعالى هُوَ الْمَسْؤول أَن يَقِينا شرور أَنْفُسنَا وحصائد ألسنتنا بمنه وفضله وَلَو لم يكن من فضل هَذَا الرجل إِلَّا مَا نبه عَلَيْهِ الْحَافِظ الشهير علم الدّين البرزالي فِي تَارِيخه أَنه لم يُوجد فِي الْإِسْلَام من اجْتمع فِي جنَازَته لما مَاتَ مَا اجْتمع فِي جَنَازَة الشَّيْخ تَقِيّ الدّين لكفى».[12]

ـــ قال ابن سيد الناس (ت:٧٣٤) رحمه الله: «فَأَلْفَيْته مِمَّن أدْرك من الْعُلُوم حظا وَكَاد يستوعب السّنَن والْآثَار حفظا إِن تكلم فِي التَّفْسِير فَهُوَ حَامِل رايته أَو أفتى فِي الْفِقْه فَهُوَ مدرك غَايَته أَو ذَاكر بِالْحَدِيثِ فَهُوَ صَاحب علمه وَذُو رِوَايَته أَو حَاضر بالنحل والملل لم

[11] معجم الشيوخ الكبير للذهبي، ٥٦/١

[12] تقريظ للحافظ ابن حجر العسقلاني على الرد الوافر لصفيّ الدين الحنفي الأثري الحسيني البخاري _ص: ١٣

ير أوسع من نحلته فِي ذَلِك وَلَا أرفع من درايته برز فِي كل فن على أَبنَاء جنسه وَلم تَرَ عين من رَآهُ مثله وَلَا رَأَتْ عينه مثل نَفسه».[١٣]

ـــ قَالَ الشَّيْخ كَمَال الدّين بن الزملكاني رحمه الله: «اجْتمعت فِيهِ شُرُوط الِاجْتِهَاد على وَجهها وَله الْيَد الطُّولى فِي حسن التصنيف وجودة الْعبارَة وَالتَّرْتِيب والتقسيم والتبيين حَكَاهُ عَن ابْن الزملكاني الْحَافِظ علم الدّين أَبُو مُحَمَّد الْقَاسِم بن البرزالي وَحَكَاهُ أيضاً الْحَافِظ ابو عبد الله مُحَمَّد بن أَحْمد بن عبد الْهَادِي فَقَالَ فِي كِتَابه طَبَقَات الْحفاظ فِي تَرْجَمَة الشَّيْخ تَقِيّ الدّين وَهِي خَاتِمَة تراجم الطَّبَقَات».[١٤]

قال عز وجل: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾{المجادلة: ١١}

فالعلم أحد أهم معايير التفاضل الربانية بين الناس وليس المال ولا المناصب ولا العشيرة ولا الحسب ولا الجمال فهذا كله يذهب ويبقى ما ينفع الناس.

٢ـــأخلاقه الرفيعة وسماحته:

قال تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾ {التوبة:١٢٩}

الأخلاق العالية الفاضلة سمة الأنبياء تحلّوا بها وأمروا بها وكانت عاملاً مهما في نجاح دعوتهم وحب الناس لهم، فمن أراد أن يسلك طريقهم وينجح في دعوتهم فليتخلّق بأخلاقهم.

وللأسف الشديد من المحزن أن نجد من يحمل راية الجهاد سيء الخلق جاف الطبع وجهه لا يعرف البشاشة وشفتاه نسيتا الابتسامة، فكما أمرنا الله أن نكون أعزة على الكافرين لا ننسى أنه أمرنا أن نكون أذلة على المؤمنين وخاصة العلماء لأنهم قدوة لغيرهم، فمهما بلغ العالم من علمه وكان صاحب حق فكثيرا ما يشينه ويلغي تأثيره وينفره من الناس سوء

[١٣] العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية لابن عبد الهادي بن يوسف الدمشقي الحنبلي (المتوفى: ٧٤٤هـ) _ص: ٢٦
[١٤] الرد الوافر لابن ناصر الدين (المتوفى: ٨٤٢هـ) _ص: ٥٨

الخلق وقلة الأدب ولنا في شيخ الإسلام ابن تيمية قدوة حسنة في ذلك: فبالرغم مما مر به شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من محن وظلم من قبل مخالفيه أدت إلى سجنه وتعذيبه ومحاولة قتله واتهامهم له بأبشع الأوصاف، إلا أن الله أنعم على شيخ الإسلام بنفسٍ كبيرة وقلبٍ سالمٍ من الأحقاد قلّ أن يوجد مثله عند غيره من علماء زمانه، فما كان يحمل في قلبه غلاً ولا حسداً ولا حقداً على أحد، بل ولا على خصومه، بل كان سائراً على منهج السلف في الرحمة والعدل بالمخالفين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله موضحا موقفه من خصومه: «تَعْلَمُونَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْكُمْ - أَنِّي لَا أُحِبُّ أَنْ يُؤْذَى أَحَدٌ مِنْ عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ - فَضْلًا عَنْ أَصْحَابِنَا - بِشَيْءٍ أَصْلًا لَا بَاطِنًا وَلَا ظَاهِرًا وَلَا عِنْدِي عَتْبٌ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ. وَلَا لَوْمٌ أَصْلًا بَلْ لَهُمْ عِنْدِي مِنْ الْكَرَامَةِ وَالْإِجْلَالِ وَالْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا كَانَ كَلٌّ بِحَسَبِهِ وَلَا يَخْلُو الرَّجُلُ. إمَّا أَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا مُصِيبًا أَوْ مُخْطِئًا أَوْ مُذْنِبًا. فَالْأَوَّلُ: مَأْجُورٌ مَشْكُورٌ. وَالثَّانِي مَعَ أَجْرِهِ عَلَى الِاجْتِهَادِ: فَمَعْفُوٌّ عَنْهُ مَغْفُورٌ لَهُ. وَالثَّالِثُ: فَاَللَّهُ يَغْفِرُ لَنَا وَلَهُ وَلِسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ»[١٥].

قال ابن كثير رحمه الله: «إِنَّ السُّلْطَانَ اسْتَفْتَى الشَّيْخَ فِي قَتْلِ بَعْضِ الْقُضَاةِ بِسَبَبِ مَا كَانُوا تَكَلَّمُوا فِيهِ، وَأَخْرَجَ لَهُ فَتَاوَى بَعْضِهِمْ بِعَزْلِهِ مِنَ الْمُلْكِ وَمُبَايِعَةِ الْجَاشْنَكِيرِ، وَأَنَّهُمْ قَامُوا عَلَيْكَ وَآذَوْكَ أَنْتَ أيضاً، وَأَخَذَ يَحُثُّهُ بِذَلِكَ عَلَى أَنْ يُفْتِيَهُ فِي قَتْلِ بَعْضِهِمْ، وَإِنَّمَا كَانَ حَنَقُهُ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ مَا كَانُوا سَعَوْا فِيهِ مِنْ عَزْلِهِ وَمُبَايَعَةِ الْجَاشْنَكِيرِ، فَفَهِمَ الشَّيْخُ مُرَادَ السُّلْطَانِ فَأَخَذَ فِي تَعْظِيمِ الْقُضَاةِ وَالْعُلَمَاءِ، وَيُنْكِرُ أَنْ ينال أحدا منهم بسوء، وَقَالَ لَهُ: إِذَا قَتَلْتَ هَؤُلَاءِ لَا تَجِدُ بِعْدَهُمْ مِثْلَهُمْ، فَقَالَ لَهُ إِنَّهُمْ قَدْ آذَوْكَ وَأَرَادُوا قَتْلَكَ مِرَارًا، فَقَالَ الشَّيْخُ مَنْ آذَانِي فَهُوَ فِي حِلٍّ، وَمَنْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ فاللَّه يَنْتَقِمُ مِنْهُ، وَأَنَا لَا أَنْتَصِرُ لِنَفْسِي، وَمَا زَالَ بِهِ حَتَّى حَلُمَ عَنْهُمُ السُّلْطَانُ وَصَفَحَ»[١٦].

[١٥] مجموع الفتاوى، ٥٣/٢٨

[١٦] البداية والنهاية، ٥٤/١٤

وقال رحمه الله أيضاً: «وَكَانَ قَاضِي الْمَالِكِيَّةِ ابْنُ مَخْلُوفٍ يَقُولُ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ ابْنِ تَيْمِيَّةَ حَرَّضْنَا عَلَيْهِ فَلَمْ نَقْدِرْ عَلَيْهِ وَقَدَرَ عَلَيْنَا فَصَفَحَ عَنَّا وَحَاجَجَ عَنَّا»[١٧]

وما أجمل تلك الكلمات التي نقلها لنا الشيخ البزار(ت: ٧٤٩هـ) رحمه الله عن شيخ الإسلام ابن تيمية في مرضه: «إِن الشَّيْخ قدس الله روحه مرض أَيَّامًا يسيرَة وَكَانَ إِذْ ذَاك الْكَاتِب شمس الدّين الْوَزير بِدِمَشْق المحروسة فَلَمَّا علم بمرضه اسْتَأْذن فِي الدُّخُول عَلَيْهِ لعيادته فَأذن الشَّيْخ لَهُ فِي ذَلِك فَلَمَّا جلس عِنْده أخذ يعْتَذر لَهُ عَن نَفسه ويلتمس مِنْهُ أَن يحله مِمَّا عساه أن يكون قد وَقع مِنْهُ فِي حَقه من تَقْصِير أَو غَيره فَأَجَابَهُ الشَّيْخ رَضِي الله عَنهُ بِأَنِّي قد أحللتك وَجَمِيع من عاداني وَهُوَ لَا يعلم أَنِّي على الْحق وَقَالَ مَا مَعْنَاهُ إِنِّي قد أحللت السُّلْطَان الْملك النَّاصِر من حَبسه إِيَّايَ لكَونه فعل ذَلِك مُقَلدًا غَيره مَعْذُورًا وَلم يفْعَله لحظ نَفسه بل لما بلغه مِمَّا ظَنّه حَقًّا من مبلغة وَالله يعلم أنه بِخِلَافِهِ وَقد أحللت كل وَاحِد مِمَّا كَانَ بيني وَبَينه إِلَّا من كَانَ عدوا لله وَرَسُوله».[١٨]

قال ابن القيم (ت: ٧٥١هـ) رحمه الله:« وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا قَطُّ أَجْمَعَ لِهَذِهِ الْخِصَالِ مِنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - وَكَانَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ الْأَكَابِرِ يَقُولُ: وَدِدْتُ أَنِّي لِأَصْحَابِي مِثْلُهُ لِأَعْدَائِهِ وَخُصُومِهِ».[١٩]

٣ــ بره بأبويه:

رغم المشاغل والصعوبات والمحن والمشاق و التعب والهموم لم ينس ابن تيمية رحمه الله وصية رب العالمين ووصية سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم بوالديه. وهذا درس لكل عالم وداعية وقائد قد حرم النجاح وعايش الفشل ولم يجد السبب، فليعد إلى بيته وليراجع علاقته مع أبويه فربَّ دعوة في جوف الليل لهذا العالم أو لهذا القائد يجري الله على يديه بها خيرا عظيما ونصرا مبينا لهذه الأمة.

---

[١٧] البداية والنهاية، ٥٤/١٤

[١٨] الأعلام العلية، ص: ٨٢

[١٩] مدارج السالكين لابن القيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) ٣٢٨/٢

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "جَاءَ رَجُلٌ إِلى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ»"[٢٠]

لنقرأ معا هذه الرسالة الجميلة المزينة بعبارات الاحترام ومشاعر البر والمحبة من الابن البار إلى الأم الحنون:

« وَتَعْلَمُونَ أَنَّ مُقَامَنَا السَّاعَةَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ إنَّمَا هُوَ لِأُمُورِ ضَرُورِيَّةٍ مَتَى أَهْمَلْنَاهَا فَسَدَ عَلَيْنَا أَمْرُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا. وَلَسْنَا وَاَللَّهِ مُخْتَارِينَ لِلْبُعْدِ عَنْكُمْ وَلَوْ حَمَلَتْنَا الطُّيُورُ لَسِرْنَا إلَيْكُمْ وَلَكِنَّ الْغَائِبَ عُذْرُهُ مَعَهُ وَأَنْتُمْ لَوْ اطَّلَعْتُمْ عَلَى بَاطِنِ الْأُمُورِ فَإِنَّكُمْ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - مَا تَخْتَارُونَ السَّاعَةَ إلَّا ذَلِكَ وَلَمْ نَعْزِمْ عَلَى الْمُقَامِ وَالِاسْتِيطَانِ شَهْرًا وَاحِدًا بَلْ كُلَّ يَوْمٍ نَسْتَخِيرُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ وَادْعُوا لَنَا بِالْخِيرَةِ فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَخِيرَ لَنَا وَلَكُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ مَا فِيهِ الْخِيرَةُ فِي خَيْرٍ وَعَافِيَةٍ. وَالْمَطْلُوبُ كَثْرَةُ الدُّعَاءِ بِالْخِيرَةِ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَلَا نَعْلَمُ وَيَقْدِرُ وَلَا نَقْدِرُ وَهُوَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ».[٢١]

٤_الصدع بالحق:

قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

العلماء ورثة الأنبياء مصابيح الظلام، وهداة الأنام؛ يبنون الأمم، ويُحْيون الهِمَم. قال تعالى :﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾{المائدة:٥٤}، هم الذين يأخذون بأيدي المسلمين إلى ما فيه عزُّهم وتمكينُهم، وعلماؤنا المخلصون هم الذين يصدعون بكلمة الحق؛ لتحيا بكلمتهم أجيال يتدفَّقون من كل مكان؛ لينصروا هذا الدين، ويُخرجوا الناس من الظلمات إلى النور. إذا حلَّت نازلة بالمسلمين وبذرَت فتنة جديدة في ساحاتهم، تصدَّر إليها العلماء، فقضوا عليها بالحُجة والبرهان، ووجَّهوا أتباعهم وعامة الطلبة والمسلمين إلى

[٢٠] رواه البخاري (٥٩٧١) بَابٌ: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ
[٢١] مجموع الفتاوى ٢٨/٥٠

النهج القويم، الذي يضمن للمسلمين إقامةَ شريعتهم، وتمكينَ دينهم، ولا شكَّ أن العالِم سيُسأل يوم القيامة عن عِلْمه ماذا عمِل فيه.

لقد ضرب لنا شيخ الإسلام ابن تيمية أروع الأمثلة للعالم الصدّاع بالحق الذي لا يداهن ولا يداري على حساب دينه، لا يخاف في الله لومة لائم، فلم تغب كلمة الحق عن لسانه بالرغم من التخويف والتعذيب والنفي والسجن.

قال الشيخ ابن ناصر الدين (ت:٨٤٢) رحمه الله: «ذكر لي أَنَّ السُّلْطَانَ لَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدين بن تَيْمِيَّةَ نَهَضَ قَائِمًا لِلشَّيْخِ أَوَّلَ مَا رَآهُ، وَمَشَى لَهُ إلى طَرَفِ الْإِيوَانِ وَاعْتَنَقَا هُنَاكَ هنيهة، ثم أخذ معه ساعة إلى طبقة فِيهَا شُبَّاكٌ إلى بُسْتَانٍ فَجَلَسَا سَاعَةً يَتَحَدَّثَانِ، ثُمَّ جَاءَ وَيَدُ الشَّيْخِ فِي يَدِ السُّلْطَانِ، فَجَلَسَ السُّلْطَانُ وَعَنْ يَمِينِهِ ابْنُ جَمَاعَةَ قَاضِي مِصْرَ، وَعَنْ يَسَارِهِ ابْنُ الْخَلِيلِيِّ الْوَزِيرُ، وَتَحْتَهُ ابْنُ صَصْرَى، ثُمَّ صَدْرُ الدِّينِ عَلِيٌّ الْحَنَفِيُّ، وَجَلَسَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ عَلَى طَرَفِ طُرَّاحَتِهِ، وَتَكَلَّمَ الْوَزِيرُ فِي إِعَادَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ إلى لُبْسِ الْعَمَائِمِ الْبِيضِ بِالْعَلَائِمِ، وَأَنَّهُمْ قَدِ الْتَزَمُوا لِلدِّيوَانِ بِسَبْعِ مِائَةِ أَلْفٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ، زِيَادَةً على الحالية، فَسَكَتَ النَّاسُ وَكَانَ فِيهِمْ قُضَاةُ مِصْرَ وَالشَّامِ وكبار الْعُلَمَاءِ مَنْ أَهْلِ مِصْرَ وَالشَّامِ مِنْ جُمْلَتِهِمُ ابْنُ الزَّمْلَكَانِيِّ.

قَالَ ابْنُ الْقَلَانِسِيِّ: وَأَنَا فِي مَجْلِسِ السُّلْطَانِ إلى جَنْبِ ابْنِ الزَّمْلَكَانِيِّ، فَلَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَلَا مِنَ الْقُضَاةِ، فَقَالَ لَهُمُ السُّلْطَانُ: مَا تَقُولُونَ؟ يَسْتَفْتِيهِمْ فِي ذلك، فلم يتكلم أحد، فجثى الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَتَكَلَّمَ مَعَ السلطان في ذلك بِكَلَامٍ غَلِيظٍ وَرَدَّ عَلَى الْوَزِيرِ مَا قَالَهُ ردا عنيفا، وجعل يرفع صوته والسلطان يتلاقاه ويسكته بترفق وتؤدة وَتَوْقِيرٍ. وَبَالَغَ الشَّيْخُ فِي الْكَلَامِ وَقَالَ مَا لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُومَ بِمِثْلِهِ، وَلَا بقريب مِنْهُ، وَبَالَغَ فِي التَّشْنِيعِ عَلَى مَنْ يُوَافِقُ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ لِلسُّلْطَانِ: حَاشَاكَ أَنْ يَكُونَ أَوَّلُ مَجْلِسٍ جَلَسْتَهُ فِي أُبَّهَةِ الْمُلْكِ تَنْصُرُ فِيهِ أَهْلَ الذِّمَّةِ لِأَجْلِ حُطَامِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ، فَاذْكُرْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكَ إِذْ رَدَّ مُلْكَكَ إِلَيْكَ، وَكَبَتَ عَدُوَّكَ وَنَصَرَكَ عَلَى أَعْدَائِكِ ».[٢٢]

[٢٢] البداية والنهاية، ٦١/١٤

قال رحمه الله: « وَلَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ غَيْرَ اللَّهِ إلَّا لِمَرَضٍ فِي قَلْبِهِ كَمَا ذَكَرُوا أَنَّ رَجُلًا شَكَا إلى أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ خَوْفَهُ مِنْ بَعْضِ الْوُلَاةِ فَقَالَ: لَوْ صَحَحْت لَمْ تَخَفْ أَحَدًا. أَيْ خَوْفُك مِنْ أَجْلِ زَوَالِ الصِّحَّةِ مِنْ قَلْبِك».[٢٣]

٥_صبره على المحن والابتلاءات:

إنَّنا أمَّة لا مَثيل لها، أمَّة الرِّجال والأبطال على مَرِّ التاريخ، ولكلِّ حقبة من الزَّمان رجالُها الذين قامُوا بتلك الشَّريعة؛ علمًا بأحكامها، وعَملاً بما علِمُوه، ودعوة لما تعلَّموه وعمِلُوا به، فرَفَع الله بهم هذا الدِّين، وأعزَّ بهم المسلمين، وحَفِظَ بهم هذه الشريعة الغرَّاء من كلِّ مفتونٍ مُضِلٍّ.

ولا تحسبنَّ أنَّ هؤلاء الأكابِر وصَلُوا لما وصَلُوا إليه براحَة الجسَد، أو بالخمول والدَّعَة، بل بشِقِّ الأنفُس، ومُجاهَدة وصبْر، وترْك كلِّ عزيزٍ وغالٍ في سبيل إعلاء مَنار هذا الدِّين، فكان دِينُ أحدِهم أغلى عليه من ولَدِه ووالِدِه والناس أجمَعِين، بل أعزّ عليه من نفسه التي بين جنبَيْه، وبعدما وصَلُوا إلى ما وصَلُوا إليه من تلك المكانة الرَّفيعَة إذا بهم يُفتَنون ويُعرَضون على مِسبار الاختِبار الحقيقي الذي يُبيِّن نقيَّ المعادِن من رَدِيئِها؛ قال -تعالى -: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢ - ٣].

وقال - صلى الله عليه وسلم -: "إنَّ من أشدِّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الذين يَلُونَهم، ثم الذين يَلُونَهم، ثم الذين يَلُونَهم".[٢٤]، فثبَّتهم الله أمامَ تلك المِحَن، وتوفَّاهم وهو عنهم راضٍ، فرَحِمهم اللهُ ورَضِي عنهم، وحشَرَنا معهم يوم القِيامَة، وجعَلَنا معهم في جنَّات النَّعيم.

ويتابع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في طريق الأنبياء. كان بوسعه أن يستريح ويتابع حياته كحياة كثير من الآخرين: حياة بلا عطاء، بل كان بوسعه أن يقول قد عانيت كفاية وقد قدمت كفاية، أو أن كثيرا من الناس لايأبهون، لكنه رحمه الله اختار الطريق

---

[٢٣] مجموع الفتاوى، ٤٤٩/٢٨

[٢٤] رواه ابن حبان (٢٩٢١) _ ذِكْرُ الْبَيَانِ بِأَنَّ الْبَلَايَا تَكُونُ بِالْأَنْبِيَاءِ أَكْثَرُ ثُمَّ الْأَمْثَلِ فَالْأَمْثَلِ فِي الدِّينِ _تعليق شعيب الأرنؤوط: ١ إسناده حسن من أجل عاصم بن بهدلة.

الأصعب اختار طريق التعب والعناء والآلام لأن في داخله هدفاً نبيلاً يهون في دربه الغالي والنفيس.

جاء في ذيل طبقات الحنابلة: «وَأَمَّا مِحَنُ الشيخ: فكثيرة، وشرحها يطول جدا. قَالَ شيخنا أَبُو عبد الله بن القيم: سمعت شيخنا شيخ الإِسْلام ابْن تيمية قدس اللَّه روحه، ونور ضريحه، يَقُول: إِن فِي الدنيا جنة من لَمْ يدخلها لَمْ يدخل جنة الآخرة. قَالَ: وَقَالَ لي مرة: مَا يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني فِي صدري، أين رحت فَهِيَ معي، لا تفارقني، أنا حبسي خلوة. وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة. وكان فِي حبسه فِي القلعة يَقُول: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبا مَا عدل عندي شكر هذه النعمة أَوْ قَالَ: مَا جزيتهم على ما نسبوا فِيهِ من الخير - ونحو هَذَا. وكان يقول في سجوده، وَهُوَ محبوس: اللَّهُمَّ أعني عَلَى ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، مَا شاء اللَّه. وَقَالَ مرة: المحبوس من حبس قلبه عَن ربه، والمأسور من أسره هواه. ولما دَخَلَ إلى القلعة، وصار داخل سورها نظر إليه وَقَالَ: { فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ، بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ، وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ } { الحديد: ١٣ }»[٢٥].

فمع السجن والملاحقة والمكر بالشيخ لم ينثنِ عن دعوته، بل استمر بقوة ويقين من غير خوف من بطش سلطان أو مكيدة شيخ فكان واثقا بالله عز وجل قويا بإخوانه ومحبيه.

قال الشيخ محمد أبو زهرة: «خاصم ابن تيمية كل هؤلاء وليس الغريب أن يكون له من بينهم قادحون يورثون قول السوء في لأخلافهم. بل الغريب أن يستمر في دعوته، وتأليبه عليهم من غير خوف. ليس الغريب أن يقضي سنين في غيابات السجن. بل الغريب ألا يعتدوا عليه بأيديهم وسيوفهم ... والسبب في ذلك أنه كان رجلا مخلصا، ابتدأ حياته محبوبا من الكافة. وكان من الواضح للعامة والكافة إخلاصه».[٢٦]

[٢٥] ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)_ ٥٢٠/٤

[٢٦] ابن تيمية لمحمد أبي زهرة. ص:٨

٦ــإخلاصه وانهماكه:

من أكثر ما يميز الشيخ رحمه الله أنه وقف نفسه لخدمة علوم الدين، إنه لم يسمح لنفسه بأية علاقة بأخر آخر طوال حياته، بينما ظل أكثر معاصريه وزملائه وأترابه ــ الذين وجد من بينهم كبار المخلصين والفضلاء ــ يشغلون مناصب الحكومة المختلفة، أو أنهم كانوا يحملون المسؤولية عن منصب ديني أو إداري، أو حظوا بمنحة ملك أو خلعة سلطان، أو جائزة ملكية، أو كانوا يقبلون رواتب الحكومة، ولكن ابن تيمية ظل في غنى عن جميع هذه الملابسات .[٢٧]

جاء في الأعلام العلية: «وإذا رأى مُنْكرا فِي طَرِيقه أزاله أَوْ سمع بِجنَازَة سارع إلى الصَّلَاة عَلَيْهَا أَوْ تأسف على فَوَاتهَا وَرُبمَا ذهب إلى قبر صَاحبهَا بعد فَرَاغه من سَمَاع الحَدِيث فَصلى عَلَيْهِ ثمَّ يعود إلى مَسْجده فَلَا يزَال تَارَة فِي إفتاء النَّاس وَتارَة فِي قَضَاء حوائجهم حَتَّى يُصَلِّي الظّهْر مَعَ الْجَمَاعَة ثمَّ كَذَلِك بَقِيَّة يَوْمه وَكَانَ مَجْلِسه عَاما للكبير وَالصَّغِير والجليل والحقير وَالْحر وَالْعَبْد وَالذكر والأنثى قد وسع على كل من يرد عَلَيْهِ من النَّاس يرى كل مِنْهُم فِي نَفسه إن لم يكرم أحدا بِقَدرِهِ ثمَّ يُصَلِّي الْمغرب ثمَّ يتَطَوَّع بِمَا يسره الله ثمَّ اقْرَأ عَلَيْهِ من مؤلفاته أَوْ غَيْرِي فيفيدنا بالطرائف ويمدنا باللطائف حَتَّى يُصَلِّي الْعشَاء ثمَّ بعْدهَا كَمَا كُنَّا وَكَانَ من الإقبال على الْعُلُوم إلى أن يذهب هوي من اللَّيْل طَوِيل وَهُوَ فِي خلال ذَلِك كُله فِي النَّهَار وَاللَّيْل لَا يزَال يذكر الله تعالى ويوحده ويستغفره»[٢٨]

جاء في الأعلام العلية: «وَكَانَ الْعلم كَأَنَّهُ قد اخْتَلَط بِلَحْمِهِ وَدَمه وسائره فَإِنَّهُ لم يكن لَهُ مستعارا بل كَانَ لَهُ شعارا ودثارا»[٢٩]

---

[٢٧] انظر رجال الفكر والدعوة لأبي الحسن الندوي _ص: ١٣٣

[٢٨] الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية _ص: ٤٠

[٢٩] الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية _ص: ١٨

٧_الزهد في الدنيا:

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، قَالَ: "أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ"[٣٠]

يقول زميله في الدراسة ومعاصره الشيخ علم الدين البرزالي رحمه الله: «وَجرى على طَرِيقَة وَاحِدَة من اخْتِيَار الْفقر والتقلل من الدُّنْيَا رَحمَه الله تعالى ورد مَا يفتح بِهِ عَلَيْهِ».[٣١]

ويتحدث الحافظ ابن فضل الله العمري عن زهد الشيخ فيقول: «كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والحرث، فيهب ذلك بأجمعه، ويضعه عند أهل الحاجة في موضعه، لا يأخذ منه شيئا إلا ليهبه، ولا يحفظه إلا ليذهبه».[٣٢]

٨_التواضع:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من تواضع لله رفعه"[٣٣]

من الأمور التي ينبغي للعالم أن يتحلى بها هي صفة التواضع لا سيما وأنه قدوة للناس، فالعالم إذا كان متكبرا لن يحوطه الناس ولن يستجيبون له ولن يحترمونه وإذا تكلم لم يسمع له، فهم يقدرون العالم المتواضع الذي يكون قريباً من المستضعفين يعيش معاناتهم ويتنزل إلى مستواهم تواضعا لله عز وجل ويسمعون له إذا دعاهم ويحمون ظهره إذا غزا بهم.

ومن عايش شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يحدثنا عن تلك الشخصية التي لم ترد علوا في الأرض ولا فسادا، بل أرادت أن تعمر الأرض بما ينفع الناس عزيزا على الكافرين ذليلا على المؤمنين.

---

[٣٠] رواه ابن ماجة (٤١٠٢)_ بَابُ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا _ تعليق الألباني: صحيح

[٣١] الكتاب: الرد الوافر _ص: ١٢١

[٣٢] الكواكب الدرية _ص: ٨٦

[٣٣] أخرجه الطبراني في " المعجم الأوسط " (رقم ٨٣٠٧) _تعليق الشيخ الألباني: صحيح (الجامع الصغير، ١٠٦١/٢)

قال الإمام البزار رحمه الله يصف لنا تواضع الشيخ :«وَأما تواضعه فَمَا رَأَيْت وَلَا سَمِعت بِأحد من أهل عصره مثله فِي ذَلِك كَانَ يتواضع للكبير وَالصَّغِير والجليل والحقير والغني الصَّالح وَالْفَقِير وَكَانَ يدني الْفَقِير الصَّالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحَدِيثه المستحلى زِيَادَة على مثله من الأغنياء حَتَّى أَنه رُبمَا خدمه بِنَفسِهِ وأعانه بِحمْل حَاجته جبرا لِقَلْبِهِ وتقربا بذلك إِلَى ربه وَكَانَ لَا يسأم مِمَّن يستفتيه أَو يسْأَله بل يقبل عَلَيْهِ بشاشة وَجه ولين عَرِيكَة وَيقف مَعَه حَتَّى يكون هُوَ الَّذِي يُفَارِقهُ كَبِيرا كَانَ أَو صَغِيرا رجلا أَو امْرَأَة حرا أَو عبدا عَالما أَو عاميا حَاضرا أَو باديا وَلَا يجبهه وَلَا يحرجه وَلَا ينفره بِكَلَام يوحشه بل يجِيبه ويفهمه ويعرفه الْخَطَأ من الصَّوَاب بلطف وانبساط وَكَانَ يلْزم التَّوَاضُع فِي حُضُوره من النَّاس ومغيبه عَنْهُم فِي قِيَامه وقعوده ومشيه ومجلسه ومجلس غَيره قِيَامه وقعوده ومشيه ومجلسه ومجلس غَيره».[٣٤]

ملاحظة مهمة:

لابد أن ننوه أن ابن تيمية رحمه الله لم يتصنع هذه الصفات تصنعا ليسحر الناس بها كما يفعل كثير من الزعماء الشعبيين اليوم ليصلوا إلى أهداف شخصية ومآرب سيادية أو حملة انتخابية، وعندما يصل الواحد منهم إلى هدفه يرمي بمبادئه عرض الحائط، بل كان رحمه الله صاحب قضية لم يتغير لا ما قبل النصر ولا ما بعده، وما تمسك بتلك الصفات إلا استجابة لأمر الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولهذا تعمدت كتابة شاهد من الكتاب أو السنة قبل كل صفة من الصفات كونها شريعة ربانية من أداها مخلصا لله عز وجل أعطاه الله عز وجل محبة الناس في الحياة وكذلك بعد الممات.

[٣٤] الأعلام العلية ٥٠/١

المبحث الثاني: بناء مجتمع موحد متماسك صلب البنية

المجتمع صاحب البنية الهشة من الداخل لن يستطيع مواجهة خطر الخارج، وعلى مدى التاريخ نجد أساليب أعداء الإسلام متنوعة في التركيز على هدم المجتمع الإسلامي وبث سموم الفرقة فيه من زرع المعتقدات الفاسدة وطرح الشبهات الخفية والتشجيع على الشهوات وإذكاء النزاعات الجاهلية والقبلية لحرف المسلمين عن توحدهم في وجه عدوهم، مما يجعل الطريق ممهداً للحملات الصليبية والمغولية.

لقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية مدركا لأهمية تماسك الجبهة الداخلية للمجتمع الإسلامي ومدى تأثيرها على ميزان القوى، فمن يدخل المعركة بصف واحد متلاحم يحقق نصف النصر حيث يرفع من عزيمة المؤمنين ولا يدع للكافرين ثغرة يستغلها لصالحه في شق الصف وإضعاف الروح المعنوية، وحمل بنفسه رحمه الله لواء وحدة المجتمع وزرع بذور الألفة بين المسلمين بقوة الدين ورابط العقيدة.

وها هو المستشرق هنري لاوست يوضح لنا دور ابن تيمية في ذلك فيقول :«ولقد كانت الأمة في عصر ابن تيمية منقسمة من الشرق إلى الغرب إلى عديد من الإمارات المستقلة وكانت الخلافات الدينية والعنصرية على أشدها داخل الإمبراطورية الشامية المصرية، بينما كانت ذكرى الحروب الصليبية والغزو التتري تدعو إلى توحيد جبهتها أمام الأخطار المشتركة، وكانت هذه الحاجة إلى الوحدة والنظام والتفاهم المتبادل قد أسهمت في زيادة أصالة الفكرة التي تكونت في مذهب ابن تيمية عن الأمة الإسلامية».[٣٥]

بكل تأكيد ستكون المهمة صعبة وتحتاج إلى خطة دقيقة وخطوات مدروسة مسبوقة لرؤيا شاملة لواقع المجتمع الذي تنتظره معركة كبيرة لن يثبت فيها إلا من سلك المنهج النبوي والدستور القرآني في الإعداد الشامل لتحقيق النصر، فتجربة بغداد ليست ببعيدة بمجتمعها المتفكك المهزوم الذي لو أعطيته سلاح العالم بأكمله لن يستطيع الصمود بوجه المغول فالسعيد من اتعظ بغيره.

---

[٣٥] نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع _ ص:١٦٣

المطلب الأول: الخطوات الفعلية لتحقيق تماسك المجتمع:

١ــ تربية الفرد المسلم:

الفرد المسلم ــ عند ابن تيمية ــ إنسان يفكر ويحس ويعمل في كل موقف وفي كل وقت كما يأمر القرآن والسنة. وهو يعيش من أجل عقيدته الإسلامية ويموت في سبيلها ، قدوته في ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم.[٣٦]

وفي ذلك يقول ابن تيمية رحمه الله: «لتكن همته(المتعلم) فهم مَقَاصِد الرَّسُول فِي أمره وَنَهْيه وَسَائِر كَلَامه فإذا اطْمَأَن قلبه أَن هَذَا هُوَ مُرَاد الرَّسُول فَلَا يعدل عَنهُ فِيمَا بَينه وَبَين الله تعالى وَلَا مَعَ النَّاس إذا أمكنه ذَلِك وليجتهد أَن يعتصم فِي كل بَاب من أَبْوَاب الْعلم بِأَصْل مأثور عَن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم».[٣٧]

قال الأستاذ قمر الدين خان: «لقد أعاد ابن تيمية الحياة للقيم الإسلامية، وعمل على خلق الظروف الملائمة لإعادة المجتمع الإسلامي بقيادة القانون الرباني: الكتاب والسنة ... إن هذا المنهج سوف يمكّن المسلمين من استيعاب ظروف الحضارة، وأن يجابه متطلبات الحياة الديناميكية».[٣٨]

٢ــ إخراج الأمة المسلمة من التفرق إلى الاجتماع:

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤)﴾ {الصف: ٤}

عندما تقتصر التربية على إعداد الفرد المسلم دون بناء الأمة المسلمة فستكون تربية فاشلة غير مثمرة لا تمس أمور المجتمع وعلاقات الحياة لذلك لابد أن تعمل التربية على وحدة العقيدة والثقافة والتفكير واجتماع الآراء والكلمة.

---

[٣٦] الفكر التربوي عند ابن تيمة لماجد عرسان الكيلاني _ص:١٠٧

[٣٧] مجموع الفتاوى _ ٦٦٤/١٠

[٣٨] ابن تيمية وفكره السياسي، ص: ٢٢٣

وعليه لابد من قطع كل ذريعة تودي بالمجتمع إلى الفرقة والتناحر لاسيما تلك التي تأتي بمنبع الجاهلية، ويغذيها اتباع الهوى الذي هو أصل كل انحراف، فكم من رجل اتبع مسيلمة الكذاب رغم تصديقه لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، إلا أن العصبية القبلية جعلت من كذاب ربيعة أحب إليه من صادق مضر.

لقد سلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تثبيت قواعد الإخوة مسلكا قويا أصله ثابت وفرعه في السماء ألا وهو الكتاب والسنة.

قال ابن تيمية رحمه الله: «نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الاختلاف الذي فيه جحد كل واحد من المختلفين ما مع الآخر من الحق..... واعلم أن أكثر الاختلاف بين الأمة الذي يورث الأهواء؛ تجده من هذا الضرب، وهو: أن يكون كل واحد من المختلفين مصيبا فيما يثبته، أو في بعضه مخطئا في نفي ما عليه الآخر».[٣٩]

وقال رحمه الله بعد ذكره آيات من كتاب الله تعالى :«وَقَالَ تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٥]..... فَظَهَرَ أَنَّ سَبَبَ الِاجْتِمَاعِ وَالْأُلْفَةِ جَمْعُ الدِّينِ وَالْعَمَلُ بِهِ كُلِّهِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا أَمَرَ بِهِ بَاطِنًا، وَظَاهِرًا. وَسَبَبُ الْفُرْقَةِ: تَرْكُ حَظٍّ مِمَّا أُمِرَ الْعَبْدُ بِهِ، وَالْبَغْيُ بَيْنَهُمْ. وَنَتِيجَةُ الْجَمَاعَةِ: رَحْمَةُ اللَّهِ، وَرِضْوَانُهُ، وَصَلَوَاتُهُ، وَسَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَبَيَاضُ الْوُجُوهِ. وَنَتِيجَةُ الْفُرْقَةِ: عَذَابُ اللَّهِ، وَلَعْنَتُهُ، وَسَوَادُ الْوُجُوهِ، وَبَرَاءَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ».[٤٠]

وقال أيضاً رحمه الله: «فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به، وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تَفَرَّقَ القوم فَسَدوا وهَلَكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا؛ فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب».[٤١]

---

[٣٩] اقتضاء الصراط المستقيم، _ص: ١٤٥

[٤٠] الفتاوى، ١٧/١

[٤١] مجموع الفتاوى ٤٢١/٣.

وقال -رحمه الله-: «من والى موافقه وعادى مخالفه وفرق بين جماعة المسلمين وكفر وفسق مخالفه دون موافقه في مسائل الآراء والاجتهادات؛ واستحل قتال مخالفه دون موافقه فهؤلاء من أهل التفرق والاختلافات»[٤٢]

وقال -رحمه الله-: «وكلُّ ما خرج عن دعوة الإسلام والقرآن: من نسب أو بلد، أو جنس أو مذهب، أو طريقة: فهو من عزاء الجاهلية، بل لما اختصم رجلان من المهاجرين والأنصار فقال المهاجري: يا للمهاجرين، وقال الأنصاري: يا للأنصار، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَبِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ»[٤٣] وغضب لذلك غضبًا شديدًا»[٤٤]

٣ــ تبني المنهج الإصلاحي:

قال عز وجل: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٦-١١٧] ، تأمل لهذا النص القرآني العظيم: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ [هود:١١٦] من هم أولو البقية؟ أولو البقية في هذه الأمة هم الطائفة المنصورة؛ لأنهم هم الذين ينهون عن الفساد في الأرض ويرفعون الراية، ويخطون الطريق، هم أولو البقية، لذلك لما ذكر الله تعالى : ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ [هود:١١٦] عقب عليه في الآية التي بعدها في قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧] فهذه سنن إلهية، ووعود ربانية، يجب أن نؤمن بها، كما أننا نؤمن بما نرى أو نسمع أو نحس بحواسنا، يجب أن نؤمن أنه ما كان الله عز وجل ليهلك القرى، والمدن، والدول، والشعوب، والأمم، وأهلها مصلحون، لاحظ ما قال: صالحون! لا، ولم يقل: أهلها مسلمون، ولا عابدون، وإنما قال: مصلحون ولأَمْرٍ مَا عبر الله عز وجل هاهنا بالإصلاح لا بالصلاح، لأن المدار على وجود

---

[٤٢] مجموع الفتاوى، ٣٤٩/٣

[٤٣] انظر الحديث كاملا في فتح القدير للشوكاني ٥٤٨/١

[٤٤] مجموع الفتاوى، ٣٢٨/٢٨

المصلحين، بمعنى أنه لا يمكن أن تخلو أمة من الأمم من عوامل الفساد والهدم والتخريب، سواء من صرعى الشهوات، أو من صرعى الشبهات، الذين يعملون فيما وسعهم لتدمير الأمة، حتى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وجد مثلاً المنافقون، الذين يكيدون في الليل والنهار ويتتبعون عورات المؤمنين، ووجد -أيضاً- بعض الذين يقعون في المعاصي والشهوات، فيقع أحدهم في زنى، أو سرقة، أو شرب خمر، أو تخلف عن جهاد، أو ما أشبه ذلك، لكن كانت الغلبة والقوة والتمكين لأولي البقية من الصالحين، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، الرافعين لراية الجهاد والدعوة، لذلك أنجى الله الأمة، ونقلها من نصر إلى نصر ومن تمكين إلى تمكين، ومن عز إلى عز.

وهكذا تظل الأمة محفوظة، ما دام فيها أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ينهى عن الفساد في الأرض، يسعى في التأليف بين قلوب المتشاحنين والإصلاح بين المتخاصمين، فقطع دابر الشر بين المسلمين وسدد رأيهم لصالح المسلمين.

قال رحمه الله :«والناس يعلمون أنه كان بين الحنبلية والأشعرية وحشة ومنافرة. وأنا كنت من أعظم الناس تأليفًا لقلوب المسلمين وطلبًا لاتفاق كلمتهم واتباعًا لما أمرنا به من الاعتصام بحبل الله، وأزلت عامة ما كان في النفوس من الوحشة ».[٤٥]

٤_احترام العلماء:

إن الأمة يجب أن تعتبر أن العلماء الشرعيين الصادقين هم لبها، وروحها، وقيادتها، ويكون ذلك: بتعظيم العلماء، وتقديرهم، ومنع النيل منهم، منع الاعتداء عليهم، أو ظلمهم، أو التنقص من حقهم، وحفظ مكانتهم وقدرهم، وأن يعرف القريب والبعيد أننا نحترم علماءنا.

فلا يوجد في أمة من الأمم، من العظماء والعلماء، مثلما يوجد في الأمة الإسلامية، لا من حيث الكيف ولا من حيث الكم، فأما من حيث الكم فمن يستطيع أن يجمع لنا في أي أمة، مهما عظمت، وكثرت، وامتدت من الفرس والرومان، والصين والهند وغيرهم، أن يجمع لنا من الأسماء اللامعة عبر التاريخ مثلما حفلت به هذه الأمة، ولذلك نجد أعداء

[٤٥] مجموع الفتاوى، ٢٢٧/٣

الدين يسعون دائما للنيل من علماء هذه الأمة العاملين ويطعنون بهم ويحاولون إسقاطهم في أعين الشباب حتى لا يبقى من يذكرهم بحقيقة معركتهم وحقيقة عدوهم، وأسلوب الإسقاط إما يكون عن طريق دس علماء السلطان الذين يلبسون على الناس دينهم فيحل ما حرمه الله أو يحرم ما أحله الله. أو عن طريق استغلال أخطاء العلماء الصادقين عن طريق شبهات يقذفونها في قلوب الجاهلين المتحمسين، فلا يبقى في نظر الشاب المسلم إلا عالم سلطان أو عالم منحرف وبالتالي يغيب الموجه والمرشد ويلمع في الوسط الرويبضة الذي يفتي بغير علم فيَضل ويُضل .

لم يدع شيخ الإسلام رحمه الله مجالا للطعن بالعلماء، فمع خلافه مع بعضهم ركز على حفظ مكانتهم وحذر من الانتقاص من قدرهم واوجب اتباعهم على هدى. فلم يتعدَّ على مخالف له ولم يظلمه بل أنصفه وعامله بالقسط، فلم يعلم عنه أنه تجاوز الحد في الحكم على أحد أو أساء الأدب أو رفض الحق مهما كان صغيرا، بل أقر به وتقبله ممن كان، وبنفس الوقت يرد الباطل والخطأ مهما كان. فلا تنافي بين التمسك بالحق والصدع به وبين احترام المخالف والأدب معه، ولا سيما إن كان المخالف عالما من العلماء الذين لهم فضل وخير كثير وسبق وحسن بلاء في الإسلام، ولا سيما إن كانوا مع ذلك كبارا في السن شابوا في الإسلام والعلم والدعوة إلى الله.

يقول رحمه الله مبينا قدر العلماء:« فَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ -بَعْدَ مُوَالَاةِ اللَّهِ تعالى وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُوَالَاةُ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ. خُصُوصًا الْعُلَمَاءُ، الَّذِينَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ جَعَلَهُمْ اللَّهُ بِمَنْزِلَةِ النُّجُومِ، يُهْتَدَى بِهِمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ. وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ. إذْ كُلُّ أُمَّةٍ -قَبْلَ مَبْعَثِ نبيِّنا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَعُلَمَاؤُهَا شِرَارُهَا، إلَّا الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّ عُلَمَاءَهُمْ خِيَارُهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ خُلَفَاءُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أُمَّتِهِ، والمحيون لِمَا مَاتَ مِنْ سُنَّتِهِ. بِهِمْ قَامَ الْكِتَابُ، وَبِهِ قَامُوا، وَبِهِمْ نَطَقَ الْكِتَابُ

وَبِهِ نَطَقُوا. وَلِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ الْأَئِمَّةِ -الْمَقْبُولِينَ عِنْدَ الْأُمَّةِ قَبُولًا عَامًّا- يَتَعَمَّدُ مُخَالَفَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَيْءٍ مِنْ سُنَّتِهِ؛ دَقِيقٍ وَلَا جَلِيلٍ».[٤٦]

٥ــ ترسيخ أدب الخلاف:

يعتبر شيخ الإسلام رحمه الله مدرسة في نشر أدب الخلاف بين المذاهب الإسلامية، فما من شيء ينفر المسلمين من العلماء أكثر من رؤيتهم متحزبين متعصبين كل منهم يسقط الآخر ويدعي لنفسه الحق وينكر على الآخر اجتهاده وربما كفرّه. فعندما تغيب ثقافة أدب الخلاف في المجتمع تنقلب الدعوة إلى مشروع تجاري وبضاعة سوقية كل يسعى للترويج لها على حساب آخر، فلا تبقى للعلماء هيبة ولا قيمة في نفوس العوام وربما يتحول المجتمع إلى ثقافات منحرفة بحجة أن العلماء في صدام مستمر.

قال رحمه الله: «مَنْ كَانَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ مُجْتَهِدًا فِي طَلَبِ الْحَقِّ وَأَخْطَأَ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ خَطَأَهُ كَائِنًا مَا كَانَ سَوَاءٌ كَانَ فِي الْمَسَائِلِ النَّظَرِيَّةِ أَوْ الْعَمَلِيَّةِ هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَجَمَاهِيرُ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ».[٤٧]

وقال رحمه الله: «مسائل الاجتهاد من عمل فيها بقول بعض العلماء لم ينكر عليه ولم يهجر، ومن عمل بأحد القولين لم ينكر عليه».[٤٨]

وقال رحمه الله: «وَلِذَلِكَ اسْتَحَبَّ الْأَئِمَّةُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ أَنْ يَدَعَ الْإِمَامُ مَا هُوَ عِنْدَهُ أَفْضَلُ، إذَا كَانَ فِيهِ تَأْلِيفُ الْمَأْمُومِينَ، مِثْلَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ فَصْلُ الْوِتْرِ أَفْضَلَ، بِأَنْ يُسَلِّمَ فِي الشَّفْعِ، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَةَ الْوِتْرِ، وَهُوَ يَؤُمُّ قَوْمًا لَا يَرَوْنَ إلَّا وَصْلَ الْوِتْرِ، فَإِذَا لَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ إلَى الْأَفْضَلِ كَانَتْ الْمَصْلَحَةُ الْحَاصِلَةُ بِمُوَافَقَتِهِ لَهُمْ بِوَصْلِ الْوِتْرِ أَرْجَحَ مِنْ مَصْلَحَةِ فَصْلِهِ مَعَ كَرَاهَتِهِمْ لِلصَّلَاةِ خَلْفَهُ، وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ مِمَّنْ يَرَى الْمُخَافَتَةَ بِالْبَسْمَلَةِ أَفْضَلُ، أَوْ

[٤٦] رفع الملام عن الأئمة الأعلام، ص: ٨
[٤٧] مجموع الفتاوى، ٣٤٦/٢٣
[٤٨] مجموع الفتاوى، ٢٠٧/٢٠

الْجَهْرُ بِهَا، وَكَانَ الْمَأْمُومُونَ عَلَى خِلَافِ رَأْيِهِ، فَفِعْلُ الْمَفْضُولِ عِنْدَهُ لِمَصْلَحَةِ الْمُوَافَقَةِ وَالتَّأْلِيفِ الَّتِي هِيَ رَاجِحَةٌ عَلَى مَصْلَحَةِ تِلْكَ الْفَضِيلَةِ كَانَ جَائِزًا حَسَنًا».[٤٩]

وَسُئِلَ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:عَمَّنْ وَلِيَ أَمْرًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ وَمَذْهَبُهُ لَا يُجَوِّزُ " شَرِكَةَ الْأَبْدَانِ " فَهَلْ يَجُوزُ لَهُ مَنْعُ النَّاسِ؟.

فَأَجَابَ: «لَيْسَ لَهُ مَنْعُ النَّاسِ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ وَلَا مِنْ نَظَائِرِهِ مِمَّا يَسُوغُ فِيهِ الِاجْتِهَادُ وَلَيْسَ مَعَهُ بِالْمَنْعِ نَصٌّ مِنْ كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ وَلَا إجْمَاع وَلِهَذَا لَمَّا اسْتَشَارَ الرَّشِيدُ مَالِكًا أَنْ يَحْمِلَ النَّاسَ عَلَى " مُوَطَّئِهِ " فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ مَنَعَهُ مِنْ ذَلِكَ. وَقَالَ: إنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَفَرَّقُوا فِي الْأَمْصَارِ وَقَدْ أَخَذَ كُلُّ قَوْمٍ مِنْ الْعِلْمِ مَا بَلَغَهُمْ. وَصَنَّفَ رَجُلٌ كِتَابًا فِي الِاخْتِلَافِ فَقَالَ أَحْمَد: لَا تُسَمِّهِ " كِتَابَ الِاخْتِلَافِ " وَلَكِنْ سَمِّهِ " كِتَابَ السُّنَّةِ ».[٥٠]

٦_محاربة فكر الغلو والتكفير:

من يدرس منهج ابن تيمية رحمه الله -بإنصاف وموضوعية وحياد- في مسائل التكفير، يجد أن الرجل في قمة التقوى والتحرز وحسن الظن، وتغليب العذر بالجهل أو الاجتهاد، ونصوصه ناطقة ومصرحة بذلك فما يُشاع عن ابن تيمية غير صحيح، وهو من الأغاليط الكثيرة المنتشرة والتي يقف وراءها ضعف التصور أو سوء الفهم ومنهجه في ذلك هو الوسطية والاعتدال، فالرجل – شأنه شأن علماء أهل السنة والجماعة – معتدل في حكمه ، وسط في مذهبه ، فلا هو بالتكفيري المتسرع في الحكم على النَّاس، كالخوارج ومن مشى على نهجهم، ولا هو بالذي يسكت عن التكفير حتى في أوضح المسائل، بحيث يعطل حكم الله تعالى في هذه المسألة أو تلك، ويجرىء النّاس على المعاصي والفجور كالمرجئة، ومن هنا كانت رؤيته في مسألة التكفير، رؤية واضحة صحيحة، لأنَّها تقوم على مقومات الأدلة الصحيحة.

---

[٤٩] مجموع الفتاوى، ٣٥٥/٢

[٥٠] مجموع الفتاوى، ٧٩/٣٠

إن أقوَى أسباب الانحِراف الذي أورَثَ أهلَه خطيئتَين عظيمتَين، هما:

الأولى: الجُرأةُ على الدم الحرام، والاستهانةُ به، وقلَّةُ أو عدمُ الاكتِراث بما وردَ فيه من الوعيد عن الله تعالى وعن رسولِه – صلى الله عليه وسلم -.

والثانية: هي الولَعُ بتكفيرِ المسلمين، والولوغُ في ذلك الإثمِ المُبين، والمُسارعةُ إليه بغير بيّنةٍ ولا فقهٍ ولا خشيةٍ من الله، ولا مُراقبةٍ له، ولا نزولٍ عند حُكمه، ولا تركٍ لأهواء النفوسِ وشهَواتها لمُراده – سبحانه .

وما رأينا مصيبة ولا طامة أدهى وأمرّ من التكفير فهي لا تشتت الصف المسلم بل تدمره، ولذلك نجد دعم التيار التكفيري من أقوى أسلحة أعداء الدين فتكا بالصحوة المسلمة وطليعتها المجاهدة.

فكان لزاما شرعيا على شيخ الإسلام رحمه الله أن يبني حصنا منيعا يقي المجتمع من فتنة التكفير، وكثيرا ما نراه رحمه الله يركز في كتاباته على خطورة التكفير على الدين، فلم يجعل للخوارج في عصره رحماً يولدون منه ولا للغلاة المتنطعين منبراً يدعون إليه بل كان بيئة خصبة لوسطية الإسلام بدون غلو ولا إرجاف، فلم نسمع منه تكفيراً بشبهة ولا بمجرد مخالفة ولا بظن أو لازم قول أو تكفير معين بدون إثبات شروط أو نفي موانع.

قال ابن تيمية رحمه الله :«وَلَا يَجُوزُ تَكْفِيرُ الْمُسْلِمِ بِذَنْبِ فَعَلَهُ وَلَا بِخَطَإٍ أَخْطَأَ فِيهِ كَالْمَسَائِلِ الَّتِي تَنَازَعَ فِيهَا أَهْلُ الْقِبْلَةِ القبلة»[٥١]

وقال رحمه الله:« يجب الاحتراز من تكفير المسلمين بالذنوب والخطايا، فإنه أول بدعةٍ ظهرت في الإسلام فكفّر أهلُها المسلمين، واستحلوا دماءهم وأموالهم »[٥٢]

وقال رحمه الله: «وَلَا يَلْزَمُ إذَا كَانَ الْقَوْلُ كُفْرًا أَنْ يَكَفِّرَ كُلَّ مَنْ قَالَهُ مَعَ الْجَهْلِ وَالتَّأْوِيلِ ؛ فَإِنَّ ثُبُوتَ الْكُفْرِ فِي حَقِّ الشَّخْصِ الْمُعَيَّنِ، كَثُبُوتِ الْوَعِيدِ فِي الْآخِرَةِ فِي حَقِّهِ، وَذَلِكَ لَهُ شُرُوطٌ وَمَوَانِعُ».[٥٣]

---

[٥١] مجموع الفتاوى، ٢٨٢/٣

[٥٢] مجموع الفتاوى، ١٣/ ٣١

[٥٣] منهاج السنة النبوية، ٢٤٠/٤

المبحث الثالث: النزول إلى الميدان والمواجهة بالسنان والبيان

المطلب الأول: الإعداد الإيماني والتعبدي:

الإعداد الإيماني علمًا وعملاً وحالاً يباعد بين المجاهدين وبين المعاصي والذنوب أو الميل إلى الدنيا والتي هي من أسباب الخذلان؛ وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية وأهملنا أعمال القلوب لتصير كالكوز مجخيا لا تعرف معروفا ولا تنكر منكرا كان لهم الفضل علينا في القوة.

وذكر البخاري في كتاب الجهاد في صحيحه قال: "باب: عمل صالح قبل القتال، وقال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم"[٥٤] وَقَوْلُهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا، كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٣].[٥٥]

والأصل في الإعداد الإيماني للمجاهدين ما ذكره سبحانه في سورة التوبة من صفات المؤمنين المجاهدين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة؛ قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ {التوبة:١١١}.

ثم عقب على هذه البيعة بصفات المؤهلين للجهاد الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله تعالى فقال سبحانه: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾{التوبة:١١٢}.

---

[٥٤] صحيح البخاري ٤/٢٠

[٥٥] [تعليق مصطفى البغا]

[ش (إنما. .) أي تقاتلون وأنتم متلبسون بأعمالكم فإن كانت صالحة كافأكم الله تعالى عليها بالنصر. (كبر) عظم. (مقتا) بغضا شديدا. (صفا) صافين أنفسهم. (مرصوص) ثابت من غير فرجة بين لبناته]

مع كل الأعباء التي كان يحملها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في القيام بمسؤولياته تجاه أمته والتي كانت تأخذ أوقاتا طويلة من حياته لم تشغله عن العلاقة الأقوى بينه وبين ربه عز وجل فما كان ليجابه الأخطار ويقاوم الأعداء ويقتحم جبهات الشبهات إلا بتلك القوة الإيمانية و التي استمدها من رقي العبودية والقرب من ربه دعاء واستغفارا وابتهالا وذكرا وقياما.

وقدوته في ذلك سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم يرفع يديه ملحاً على ربه قبل غزوة بدر طالباً النصر من الله عز وجل تبرأ من حوله وقوته والتجأ إلى حول الله، وقوته زاده الذكر والصلاة في طريق الفلاح.

قال الذهبي رحمه الله : «ولم أر مثله في ابتهاله، واستغاثته بالله، وكثرة توجهه».[٥٦]

جاء في العقود الدرية: «وَلَقَد سمعته فِي مبادىء أمره يَقُول إِنَّه ليقف خاطري فِي الْمَسْأَلَة وَالشَّيْء أَو الْحَالة الَّتِي تشكل على فأستغفر الله تعالى ألف مرّة أو أكثر أَو أقل حَتَّى ينشرح الصَّدْر وينحل إِشْكَال مَا أشكل قَالَ وأكون اذ ذَاك فِي السُّوق أَو الْمَسْجِد أَو الدَّرْب أَو الْمدرسَة لَا يَمْنعنِي ذَلِك من الذّكر وَالِاسْتِغْفَار إلى أَن أنال مطلوبي».[٥٧]

قال ابن القيم رحمه الله: «كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: لابد للسالك إلى الله من همة تسيره وترقيه، وعلم يبصره ويهديه.

وقال العارف: يسير إلى الله عز وجل بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس.

قال ابن القيم رحمه الله: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: العارف لا يرى له على أحد حقا، ولا يشهد له على غيره فضلا؛ ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب. ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- من ذلك أمرا لم أشاهده من غيره. وكان يقول كثيرا: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء. وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدي وابن المكدي ... وهكذا كان أبي وجدي

---

[٥٦] ابن الوزير: العواصم والقواصم ٢٦٢/٥.

[٥٧] العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ص: ٢٢

وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاما جيدا».[٥٨]

وهكذا يقبل ابن تيمة رحمه الله إلى المعركة بسلاح الإيمان و التوحيد فنعم السلاح ما حمل ونعم المراكب ما ركب.

المطلب الثاني: توضيح حقيقة المعركة من الناحية الشرعية:

إن فتاوى ابن تيمية بشأن حال التتار والحكم عليهم لتقدم مثالًا رائعًا، ومسلكًا فريدًا في التعامل مع النوازل المشكلة الحاضرة، والتي تحاكي واقع التتار، فقد استصحب ابن تيمية واستوعب الأوصاف المؤثرة في الحكم، واستبعد ما لم يكن كذلك، فجاءت فتاويه في التتار غايةً في العدل والتحقيق، والعلم والتوثيق. فأظهر ابن تيمية رحمه الله حقيقة التتار، وكشف أسرارهم وهتك أستارهم، وفصّل في توصيف حالهم بعلم وعدل، وتأصيل شرعي وواقعي متبع منهج أهل السنة والجماعة في فهم الدليل وفهم الواقع والاجتهاد في النوازل كعالم معايش للواقع متبحر بالعلم فأزال اللبس والإشكال في واقعهم والحكم عليهم.

فالمعركة ليست معركة على النفوذ والمصالح والاقتصاد بل هي معركة عزة الأمة وجهاد في سبيل الله عز وجل هدفها إعلاء كلمة الله عز وجل وحماية المستضعفين ونصرة المظلومين، فواجب العلماء الربانيين أن يقدموا لشباب الأمة الأسباب الشرعية للجهاد الدفاعي أو الهجومي كعبادة يتقربون بها إلى الله عز وجل، مفصلين لهم بالدليل وأقوال أهل الاجتهاد في الطوائف الواجب على المسلمين قتالها ولماذا يقاتلونها، وماهي الضوابط الشرعية التي عليهم الالتزام بها في قتالها والأهم من ذلك إزالة الشبه التي سيطرحها أهل الإرجاف والتثبيط.

وقد شهد المستشرقون الغرب لابن تيمية رحمه الله بأهمية هذه الفتاوى وصدورها من عالم بالشرع والواقع:

---

[٥٨] المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام ،ص: ١٤٣

قال دينس إيغل: «إن الظروف التاريخية التي كُتبت فيها هذه الفتاوى تعلمنا بموقف ابن تيمية في مواجهة الخطر الذي تمثله محاولات المغول للسيطرة على بلاد الشام، كما تكشف النقاب عن وجهة نظر ثاقبة لعلامة المذهب الحنبلي العظيم لحقيقة النظام المغولي.[٥٩]

جاء في فتاوي الشيخ: «وَذَلِكَ أَنَّ اعْتِقَادَ هَؤُلَاءِ التَّتَارِ كَانَ فِي جِنْكِيزْ خَانْ عَظِيمًا فَإِنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ مِنْ جِنْسِ مَا يَعْتَقِدُهُ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ، وَيَقُولُونَ: إنَّ الشَّمْسَ حَبَّلَتْ أُمَّهُ، وَأَنَّهَا كَانَتْ فِي خَيْمَةٍ فَنَزَلَتْ الشَّمْسُ مِنْ كُوَّةِ الْخَيْمَةِ فَدَخَلَتْ فِيهَا حَتَّى حَبِلَتْ، وَمَعْلُومٌ عِنْدَ كُلِّ ذِي دِينٍ أَنَّ هَذَا كَذِبٌ. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ وَلَدُ زِنى، وَأَنَّ أُمَّهُ زَنَتْ فَكَتَمَتْ زِنَاهَا، وَأَخْفَتْ هَذَا حَتَّى تَدْفَعَ عَنْهَا مَعَرَّةَ الزِّنَى، وَهُمْ مَعَ هَذَا يَجْعَلُونَهُ أَعْظَمَ رَسُولٍ عِنْدَ اللَّهِ فِي تَعْظِيمِ مَا سَنَّهُ لَهُمْ، وَشَرَعَهُ بِظَنِّهِ، وَهُوَ حَتَّى يَقُولُوا لِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْمَالِ هَذَا رِزْقُ جِنْكِيزْ خَانْ، وَيَشْكُرُونَهُ عَلَى أَكْلِهِمْ وَشُرْبِهِمْ، وَهُمْ يَسْتَحِلُّونَ قَتْلَ مَنْ عَادَى مَا سَنَّهُ لَهُمْ هَذَا الْكَافِرُ الْمَلْعُونُ الْمُعَادِي لِلَّهِ وَلِأَنْبِيَائِهِ وَرَسُولِهِ وَعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ مُقَدَّمِيهِمْ كَانَ غَايَتُهُ بَعْدَ الْإِسْلَامِ أَنْ يَجْعَلَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِمَنْزِلَةِ هَذَا الْمَلْعُونِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ " مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ "كَانَ أَقَلَّ ضَرَرًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذَا، وَادَّعَى أَنَّهُ شَرِيكُ مُحَمَّدٍ فِي الرِّسَالَةِ، وَبِهَذَا اسْتَحَلَّ الصَّحَابَةُ قِتَالَهُ، وَقِتَالَ أَصْحَابِهِ الْمُرْتَدِّينَ، فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ فِيمَا يُظْهِرُهُ مِنْ الْإِسْلَامِ يَجْعَلُ مُحَمَّدًا كَجِنْكِيزْ خَانْ، وَإِلَّا فَهُمْ مَعَ إظْهَارِهِمْ لِلْإِسْلَامِ يُعَظِّمُونَ أَمْرَ " جِنْكِيزْ خَانْ " عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْمُتَّبِعَةِ لِشَرِيعَةِ الْقُرْآنِ وَلَا يُقَاتِلُونَ أُولَئِكَ الْمُتَّبِعِينَ لِمَا سَنَّهُ " جِنْكِيزْ خَانْ "كَمَا يُقَاتِلُونَ الْمُسْلِمِينَ بَلْ أَعْظَمَ».[٦٠]

وقال رحمه الله: «وَبِالْجُمْلَةِ: فَمَا مِنْ نِفَاقٍ وَزَنْدَقَةٍ وَإِلْحَادٍ إلَّا وَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي اتِّبَاعِ التَّتَارِ؛ لِأَنَّهُمْ مِنْ أَجْهَلِ الْخَلْقِ وَأَقَلِّهِمْ مَعْرِفَةً بِالدِّينِ وَأَبْعَدِهِمْ عَنْ اتِّبَاعِهِ وَأَعْظَمِ الْخَلْقِ اتِّبَاعًا لِلظَّنِّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ».[٦١]

---

[٥٩] الغزوات المغولية لبلاد الشام وفتاوى ابن تيمية الثلاث في مكافحة المغول

[٦٠] مجموع الفتاوى، ٥٤٣/٣

[٦١] مجموع الفتاوى، ٥٤٣/٣

لم يكتف ابن تيمية رحمه الله ببيان حال التتار وحكمهم الشرعي، بل بيّن أيضاً حكم من ينضم إليهم من المسلمين عندما سئل عن حال المسلمين المنضمين إلى الجيش التتري وحكم قتالهم، فكان جوابه غايةً في القوة والوضوح أن خطر هؤلاء أكبر من خطر التتار أنفسهم فبمجرد انضمامهم سيعطون للمحتل الكافر صبغة شرعية للسيطرة على المناطق الإسلامية.

قال رحمه الله: «وَالنَّصَارَى تَدْخُلُ مَعَ التَّتَارِ فَيَصِيرُونَ حِزْبًا عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ، فَهَذَا وَغَيْرُهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ هَذِهِ الْعِصَابَةَ الَّتِي بِالشَّامِ وَمِصْرَ فِي هَذَا الْوَقْتِ هُمْ كَتِيبَةُ الْإِسْلَامِ، وَعِزُّهُمْ عِزُّ الْإِسْلَامِ، وَذُلُّهُمْ ذُلُّ الْإِسْلَامِ، فَلَوْ اسْتَوْلَى عَلَيْهِمْ التَّتَارُ لَمْ يَبْقَ لِلْإِسْلَامِ عِزٌّ وَلَا كَلِمَةٌ عَالِيَةٌ، وَلَا طَائِفَةٌ ظَاهِرَةٌ عَالِيَةٌ يَخَافُهَا أَهْلُ الْأَرْضِ تُقَاتِلُ عَنْهُ، فَمَنْ قَفَزَ عَنْهُمْ إلى التَّتَارِ كَانَ أَحَقَّ بِالْقِتَالِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ التَّتَارِ، فَإِنَّ التَّتَارَ فِيهِمْ الْمُكْرَهُ وَغَيْرُ الْمُكْرَه»[٦٢].

وهكذا ينجز ابن تيمية رحمه الله مهمة صعبة في طريق النصر بإزالته كل ما يشوش على الشباب المجاهد من خواطر ودسائس شياطين الإنس والجن، فيُعرّف عدوه ويُعرّف حقيقة معركته ويَعرف دوره في امتحان سيشارك فيه ممثلا عن الأمة جمعاء.

المطلب الثالث: خطاب الأمة جمعاء بحقيقة المعركة:

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾{ الأنفال: ٦٥}.

_لقد أصدر شيخ الإسلام رحمه الله بيانا عاما يستنفر فيه الأمة لقتال التتار، وهنا ندرك عدم إغفاله رحمه الله للجانب الإعلامي للمعركة معتمدا أسلوبا رائعا في الخطاب السهل البعيد عن التكلف والحشو مستعملا العبارات التشجيعية المبنية على الأصول الشرعية، مستهدفا جميع شرائح المجتمع ومستوياتهم، خطابا تلغى فيه العبارات الحزبية المقيتة والعصبية المنهجية المفرقة، فكان خطابا إسلاميا عاما موجها للمسلمين عامة لنصرة الإسلام ولا شيء غير الإسلام.

[٦٢] مجموع الفتاوى، ٥٤٣/٣

جاء في البيان: «فَهَذِهِ الْفِتْنَةُ قَدْ تُفَرِّقُ النَّاسَ فِيهَا ثَلَاثَ فِرَقٍ: الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ وَهُمْ الْمُجَاهِدُونَ لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ. وَالطَّائِفَةُ الْمُخَالِفَةُ وَهُمْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ وَمَنْ تَحَيَّزَ إلَيْهِمْ مِنْ خبالة الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْإِسْلَامِ. وَالطَّائِفَةُ الْمُخَذِّلَةُ وَهُمْ الْقَاعِدُونَ عَنْ جِهَادِهِمْ؛ وَإِنْ كَانُوا صَحِيحِي الْإِسْلَامِ. فَلْيَنْظُرْ الرَّجُلُ أَيَكُونُ مِنْ الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ أَمْ مِنْ الْخَاذِلَةِ أَمْ مِنْ الْمُخَالِفَةِ؟ فَمَا بَقِيَ قِسْمٌ رَابِعٌ. وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجِهَادَ فِيهِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَفِي تَرْكِهِ خَسَارَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ..وَلَا يَفُوتُ مِثْلُ هَذِهِ الْغُزَاةِ إلَّا مَنْ خَسِرَتْ تِجَارَتُهُ وَسَفَّهَ نَفْسَهُ وَحُرِمَ حَظًّا عَظِيمًا مِنْ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ ...والائتلاف عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ؛ يَجْمَعْ اللَّهُ قُلُوبَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَحْصُلْ لَكُمْ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَة ».[٦٣]

نستطيع أن نلخص البيان بعدة وصايا:

أـــ وجوب الالتحاق بالطائفة المنصورة المجاهدة واجتناب المخذلين

ب- الجهاد في سبيل الله أفضل العمل وهو ماض إلى يوم القيامة

ج- النصر حتم لأهل الإسلام

د- من عاش ليجاهد التتار فقد منّ الله عليه

هـ- عليكم بالجماعة والطاعة والجهاد

المطلب الرابع: الدور العملي للشيخ في مواجهة التتار:

١ـــتوجه التتار إلى دمشق (٦٩٩هـ) وهزيمة سلطان المماليك:

أثار خبر قدوم التتار إلى دمشق خوف الناس وانتشر الذعر في الأوساط وأصيب شعب دمشق بحالة هلع شديدة نظرا إلى ما جربته الأقطار الإسلامية من شدة غاراتهم وبطشهم. لكن سرعان ما اطمأن الناس أن سلطان مصر (الملك الناصر محمد بن قلاوون) قادم مع العساكر المملوكية إلى الشام لحمايتها من غارة التتر ومقاومتهم، لكن للأسف هزم السلطان وزادت الحالة سوءا.

[٦٣] الفتاوي ج٢٨ ص٤١٠،٤٣١.

ولنستمع من ابن كثير رحمه الله يحدثنا بتفصيل أكثر:

قال رحمه الله: « تَوَاتَرَتِ الأخبار بقصد التتار بِلَادِ الشَّامِ، وَقَدْ خَافَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ خَوْفًا شَدِيدًا، وَجَفَلَ النَّاسُ مِنْ بِلَادِ حَلَبَ وحماه، وبلغ كري الخيل مِنْ حَمَاةَ إلى دِمَشْقَ نَحْوَ الْمِائَتَيْ دِرْهَمٍ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الثُّلَاثَاءِ ثَانِي الْمُحَرَّمِ ضَرَبَتِ البشائر بسبب خروج السلطان من مصر قَاصِدًا الشَّامَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ثَامِنِ ربيع الأول دخل السلطان إلى دمشق فِي مَطَرٍ شَدِيدٍ وَوَحَلٍ كَثِيرٍ، وَمَعَ هَذَا خرج الناس لتلقيه، وكان قد أَقَامَ بِغَزَّةَ قَرِيبًا مِنْ شَهْرَيْنِ، وَذَلِكَ لَمَّا بلغه قدوم التتار إلى الشام، فتهيأ لذلك وجاء فدخل دمشق فنزل بالطارمة، وزينت له والبلد، وَكَثُرَتْ لَهُ الْأَدْعِيَةُ وَكَانَ وَقْتًا شَدِيدًا، وَحَالًا صعباً، وامتلأ البلد من الجافين النَّازِحِينَ عَنْ بِلَادِهِمْ، وَجَلَسَ الْأَعْسَرُ وَزِيرُ الدَّوْلَةِ وَطَالَبَ الْعُمَّالَ وَاقْتَرَضُوا أَمْوَالَ الْأَيْتَامِ وَأَمْوَالَ الْأَسْرَى لِأَجْلِ تَقْوِيَةِ الْجَيْشِ وَخَرَجَ السُّلْطَانُ بِالْجَيْشِ مِنْ دِمَشْقَ يَوْمَ الْأَحَدِ سَابِعَ عَشَرَ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ وَلَمْ يَتَخَلَّفْ أَحَدٌ مِنَ الْجُيُوشِ، وَخَرَجَ مَعَهُمْ خلق كثير من المتطوعة، وَأَخَذَ النَّاسُ فِي الدُّعَاءِ وَالْقُنُوتِ فِي الصَّلَوَاتِ بِالْجَامِعِ وَغَيْرِهِ، وَتَضَرَّعُوا وَاسْتَغَاثُوا وَابْتَهَلُوا إلى اللَّهِ بِالْأَدْعِيَةِ.

وَقْعَةُ قَازَانَ: لَمَّا وَصَلَ السُّلْطَانُ إلى وادي الخزندار عند وادي سلمية، فالتقى التتر هناك يوم الأربعاء السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ فَالْتَقَوْا مَعَهُمْ فَكَسَرُوا الْمُسْلِمِينَ وَوَلَّى السُّلْطَانُ هَارِبًا فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ، وَقُتِلَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَغَيْرُهُمْ وَمِنَ الْعَوَامِّ خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَفُقِدَ فِي المعركة قاضي قضاة الحنفية، وَقَدْ صَبَرُوا وَأَبْلَوْا بَلَاءً حَسَنًا، وَلَكِنْ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُورًا، فَوَلَّى الْمُسْلِمُونَ لَا يَلْوِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، ثُمَّ كَانَتِ الْعَاقِبَةُ بَعْدَ ذَلِكَ لِلْمُتَّقِينَ، غَيْرَ أَنَّهُ رَجَعَتِ الْعَسَاكِرُ على أعقابها للديار المصرية واجتاز كثير منهم على دمشق، وأهل دمشق في خوف شديد على أنفسهم وأهليهم وَأَمْوَالِهِمْ، ثُمَّ إِنَّهُمُ اسْتَكَانُوا وَاسْتَسْلَمُوا لِلْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ، وَمَاذَا يُجْدِي الْحَذَرُ إِذَا نَزَلَ الْقَدَرُ، وَرَجَعَ السُّلْطَانُ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الْجَيْشِ عَلَى نَاحِيَةِ بعلبك والبقاع، وَأَبْوَابُ دِمَشْقَ مُغَلَّقَةٌ، وَالْقَلْعَةُ مُحَصَّنَةٌ وَالْغَلَاءُ شَدِيدٌ وَالْحَالُ ضَيِّقٌ وَفَرَجُ اللَّهِ قَرِيبٌ، وَقَدْ هَرَبَ جماعة من أعيان البلد وغيرهم إلى

مصر، كالقاضي إمام الدين الشافعي، وقاضي المالكية الزواوي، وتاج الدين الشِّيرَازِيّ، وَعَلَمِ الدِّينِ الصَّوَابِيّ وَالِي الْبَرِّ، وَجَمَالِ الدِّينِ بْنِ النَّحَّاسِ وَالِي الْمَدِينَةِ، وَالْمُحْتَسِبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ التُّجَّارِ وَالْعَوَامِّ، وَبَقِيَ الْبَلَدُ شَاغِرًا لَيْسَ فيهم حاكم سوى نائب القلعة».[٦٤]

٢ــ موقف ابن تيمية كرجل أزمة:

برز ابن تيمية رحمه الله كزعيم شعبي ممثل للناس في خروجه لمفاوضة قازان بعد هزيمة السلطان قلاوون في موقف لا يحسد عليه، فكما رأينا فواقع دمشق ضعيف في كل النواحي إضافة لغياب السلطة الحقيقية، فالمسؤولية عظيمة جدا وثقيلة على ابن تيمية رحمه الله، فخرج مجازفا بحياته لخدمة المسلمين وليفاوض عن قوة نعم عن قوة الإيمان والعقيدة والحرية بعزة العبودية لله عز وجل فما كان ليعطي الدنية في دينه وأعطى درساً لكل مفاوض يجلس على طاولة التفاوض مع عدوه. مع أن الفتنة عظيمة والواقع صعب لم يستجب رحمه الله لفتنة الملوك بالجاه والملك والمال ولا لصيحات الاستسلام بحجة الاستضعاف وتراجع القدرة عن المقاومة بل كان واثقا من نصر الله عز وجل فالقضية عنده ليست قضية استعراض عضلات بلا ثمرة. ولا خطاب شهرة بلا هدف. فجلس جلوس الند للند واضعا قوة قازان التتري العسكرية تحت قدميه بعزة المسلم، فلم يتنازل عن الثوابت بل جهر بالحق وصدع به في وجه قازان وناقشه ولم يداريه ولم يداهنه. وحقق المصالح والأمان للناس ولم يخش في الله لومة لائم، فقذف الله الرعب في قلب الطاغية وأحيا الله به القلوب اليآسة. فرجع إلى دمشق سالما معززا مكرما.

قال ابن كثير رحمه الله واصفا جلسة التفاوض بين ابن تيمية وقازان زعيم التتار: «هذا وسلطان التتار قد قصد دمشق بعد الوقعة ، فاجتمع أعيان البلد والشيخ تقي الدين ابن تيمية في مشهد علي ، واتفقوا على المسير إلى قازان لتلقيه ، وأخذ الأمان منه لأهل دمشق ، فتوجهوا يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر ، فاجتمعوا به عند النبك ، وكلمه الشيخ

[٦٤] البداية والنهاية، ٩/١٤

تقي الدين ابن تيمية كلاما قويا شديدا ، فيه مصلحة عظيمة عاد نفعها على المسلمين ، ولله الحمد»[٦٥].

وقال رحمه الله في موضع آخر: «وَكَانَ يَوْمَ قَازَانَ فِي جُمْلَةِ من كان مع الشيخ تقي الدين بن تَيْمِيَّةَ لَمَّا تَكَلَّمَ مَعَ قَازَانَ، فَحَكَى عَنْ كَلَامِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ تَقِيِّ الدِّينِ لِقَازَانَ وَشَجَاعَتِهِ وجرأته عليه، وأنه قال لترجمانه قل للقان: أَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ مُسْلِمٌ وَمَعَكَ مُؤَذِّنُونَ وَقَاضٍ وإمام وشيخ على ما بلغنا فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا؟ وأبوك وجدك هلاكو كَانَا كَافِرَيْنِ وَمَا غَزَوَا بِلَادَ الْإِسْلَامِ، بَلْ عاهدوا قومنا، وَأَنْتَ عَاهَدْتَ فَغَدَرْتَ وَقُلْتَ فَمَا وَفَّيْتَ.

قَالَ: وَجَرَتْ لَهُ مَعَ قَازَانَ وَقُطْلُوشَاهْ وَبُولَايْ أُمُورٌ وَنُوَبٌ، قَامَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِيهَا كُلِّهَا لِلَّهِ، وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل.

قال وقرب إلى الجماعة طعاماً فَأَكَلُوا مِنْهُ إِلَّا ابْنَ تَيْمِيَّةَ فَقِيلَ لَهُ أَلَا تَأْكُلُ؟ فَقَالَ: كَيْفَ آكُلُ مِنْ طَعَامِكُمْ وَكُلُّهُ مِمَّا نَهَبْتُمْ مِنْ أَغْنَامِ النَّاسِ وَطَبَخْتُمُوهُ بِمَا قَطَعْتُمْ مِنْ أَشْجَارِ النَّاسِ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّ قَازَانَ طَلَبَ مِنْهُ الدُّعَاءَ فَقَالَ فِي دعائه " اللهم إن كان هذا عبدك مَحْمُودٌ إِنَّمَا يُقَاتِلُ لِتَكُونَ كَلِمَتُكَ هِيَ الْعُلْيَا وَلِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لَكَ فَانْصُرْهُ وَأَيِّدْهُ وَمَلِّكْهُ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ، وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً وَطَلَبًا لِلدُّنْيَا وَلِتَكُونَ كَلِمَتُهُ هِيَ الْعُلْيَا وليذل الإسلام وأهله فأخذ له وزلزله ودمره وأقطع دبره " قَالَ: وَقَازَانُ يُؤَمِّنُ عَلَى دُعَائِهِ، وَيَرْفَعُ يَدَيْهِ.

قَالَ: فَجَعَلْنَا نَجْمَعُ ثِيَابَنَا خَوْفًا مِنْ أَنْ تَتَلَوَّثَ بِدَمِهِ إِذَا أَمَرَ بِقَتْلِهِ.

قَالَ: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ لَهُ قَاضِي الْقُضَاةِ نجم الدين بن صَصْرَى وَغَيْرُهُ: كِدْتَ أَنْ تُهْلِكَنَا وَتُهْلِكَ نَفْسَكَ، وَاللَّهِ لَا نَصْحَبُكَ مِنْ هُنَا، فَقَالَ: وَأَنَا وَاللَّهِ لَا أَصْحَبُكُمْ.

قَالَ: فَانْطَلَقْنَا عُصْبَةً وَتَأَخَّرَ هُوَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أصحابه، فتسامعت به والخواقين وَالْأُمَرَاءُ مِنْ أَصْحَابِ قَازَانَ فَأَتَوْهُ يَتَبَرَّكُونَ بِدُعَائِهِ، وَهُوَ سَائِرٌ إلى دِمَشْقَ، وَيَنْظُرُونَ إليه، قَالَ وَاللَّهِ مَا وَصَلَ إلى دِمَشْقَ إِلَّا فِي نحو ثلاثمائة فَارِسٍ فِي رِكَابِهِ، وَكُنْتُ

[٦٥] البداية والنهاية، ٩/١٤

أَنَا مِنْ جُمْلَةِ من كان معه، وأما أولئك الذي أَبَوْا أَنْ يَصْحَبُوهُ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ جَمَاعَةٌ مِنَ التتر فشلحوهم عن آخرهم، هذا كلام أَوْ نَحْوُهُ، وَقَدْ سَمِعْتُ هَذِهِ الْحِكَايَةَ مِنْ جَمَاعَةٍ غَيْرِهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ».[٦٦]

جاء في الأعلام العلية: «ويحدثنا الشَّيْخ وجيه الدّين ابْن المنجا قدس الله روحه وكان شاهدا على تلك الجلسة: كنت حَاضرا مَعَ الشَّيْخ حِينَئِذٍ فَجعل يَعْنِي الشَّيْخ يحدث السُّلْطَان بقول الله وَرَسُوله فِي الْعدْل وَغَيره وَيرْفَع صَوته على السُّلْطَان فِي اثناء حَدِيثه حَتَّى جثا على رُكْبَتَيْهِ وَجعل يقرب مِنْهُ فِي أثْنَاء حَدِيثه حَتَّى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركبة السُّلْطَان وَالسُّلْطَان مَعَ ذَلِك مقبل عَلَيْهِ بكليته مصغ لما يَقُول شاخص إليه لَا يعرض عَنهُ وَأَن السُّلْطَان من شدَّة مَا أوقع الله مَا فِي قلبه من الْمحبَّة والهيبة سَأَلَ من يَخُصُّهُ من أهل حَضرته من هَذَا الشَّيْخ وَقَالَ مَا مَعْنَاهُ إِنِّي لم أر مثله وَلَا أثبت قلبا مِنْهُ وَلَا أوقع من حَدِيثه فِي قلبِي وَلَا رَأَيْتنِي أعظم انقيادا مني لَاحَدَّ مِنْهُ فَأخْبر بِحَالهِ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ من الْعلم وَالْعَمَل فَقَالَ الشَّيْخ للترجمان قل لغازان انت تزْعم انك مُسلم ومعك قَاضِي وَإِمَام وَشَيخ ومأذنون على مَا بلغنَا فغزوتنا وَأَبُوك وَجدك كَانَا كَافِرين وَمَا عملا الَّذِي عملت عاهدا فوفيا وأنت عَاهَدت فغدرت وَقلت فَمَا وفيت وَجَرت وَسَأَلَهُ إِن أَحْبَبْت أَن أعمر لَك بلد آبَائِك حران وتنتقل إليه وَيكون برسمك فَقَالَ لَا وَالله لَا أَرغب عَن مهَاجر إِبْرَاهِيم صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أستبدل بِهِ غَيره فَخرج من بَين يَدَيْهِ مكرما معززا قد صنع لَهُ الله بِمَا طوى عَلَيْهِ نِيَّته الصَّالِحَة من بذله نَفسه فِي طلب حقن دِمَاء الْمُسلمين فَبَلغهُ مَا أَرَادَهُ وَكَانَ ذَلِك أيضاً سَببا لتخليص غَالب أُسَارَى الْمُسلمين من أَيْديهم وردهم على أهلهم وَحفظ حريمهم، وَهَذَا من أعظم الشجَاعَة والثبات وَقُوَّة الجأش وَكَانَ يَقُول لن يخَاف الرجل غير الله إِلَّا لمَرض فِي قلبه فإن رجلا شكى إلى أَحْمد بن حَنْبَل خَوفه من بعض الْوُلَاة فَقَالَ لَو صححت لم تخف أحدا أَي خوفك من أجل زَوَال الصِّحَّة من قَلْبك».[٦٧]

---

[٦٦] البداية والنهاية، ١٠٢/١٤

[٦٧] الكتاب: الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية _ص: ٧٢

وفي وصف بديع للإمام المقريزي لموقف البطولة لشيخ الإسلام يقول: «وقيامِه في دفع حُجَّةِ التَّتارِ، واقتحامه وسيوفُهم تتدفَّقُ لُجَّةَ البِدار، حتَّى جَلَس إلى السلطان محمود غازان حيث تَجِم الأُسْدُ في آجامِها، وتَسقُط القلوبُ في دواخلِ أجسامِها، وتَجِدُ النارُ فتورًا في ضَرَمِها، والسيوفُ فَرَقًا في قَرَمِها، خوفًا من ذلك السَّبُع المغتال، والنمروذِ المختال، والأجل الَّذي يُدفَع بحيلةِ مُحتال، فَجلس إليه وأومأ بيده إلى صدرِه، وواجَهَه ودرأَ في نَحْرِه، فطَلَبَ منه الدُّعَاء، فرفَع يديه ودعَا، دُعاءَ مُنصفٍ أكثرُه عليه، وغازانُ يؤمِّنُ على دعائه وهو مُقبلٌ إليه. ثمَّ كَانَ على هذه المواجهة القبيحة، والمشاتمة الصريحة، أعظم في صدرِ غازانَ المُغَل من كلّ من طلعَ معه إليهم، وهم سلف العلماء في ذلك الصَّدْر، وأهلُ الاستحقاقِ لرِفعةِ القَدْر. هذا مع ماله من جهادٍ في الله لم تُفزِعْه فيه ظلل الوشيج، ولم يُجزِعْه فيه ارتفاع النشيج، مواقفُ حروبٍ باشرَها»[٦٨].

٣_التتر ينقضون العهد:

من الطبيعي أن تتعامل مع عدوك أن الأصل فيه هو الغدر والخيانة، فتفاوضه على هذا الأساس، فعقد الأمان من جهة قازان لا يعني انتهاء الحرب، وإنما أخذ وقت يستطيع المسلمون فيه ترتيب صفوفهم وتجميع صفهم والاعتبار من هزيمتهم السابقة وهذا الأمر كان ضمن حسابات ابن تيمية رحمه الله بصفته زعيما شعبيا ممثلا عن المسلمين وبيده زمام الأمور فعليا حتى مع وجود حاكم لدمشق. وهذا ما يؤكد عليه حتى المستشرقون الغرب باعتبار ابن تيمية زعيما شعبيا:

قال هنري لاوست: «خلال أزمة المغول العظيمة في السنوات ١٢٩٩ إلى ١٣٠٣ ، وخاصة خلال احتلال دمشق، قاد حزب المقاومة وندد بالإيمان المشتبه به للغزاة والمتواطئين معهم»[٦٩].

---

[٦٨] الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، ص: ٣١٥

[٦٩] من مقالة: مسلم اللاهوت علمٌ يبحث في العقائد المتعلّقة بالله تعالى ، كوجوده وذاته وصفاته والإيمان بالنُّصوص المقدَّسة وسلطان الكنيسة ، ويقوم عند المسيحيّين مقام علم الكلام عند المسلمين)
رابط المقال:

«ويعتبر كميل مولكر أن الشرعية القانونية لابن تيمية تم إضفاء الشرعية عليها إلى حد ما من خلال حقيقة أن دعمه الشعبي جاء من كل شريحة من شرائح المجتمع».[٧٠]

وبالفعل خان التتار العهد واستمروا بالنهب والسلب وطالبوا أهل دمشق بتسليم سلاحهم وخيولهم، إلى أن طلبوا من نائب القلعة المسلم تسليم القلعة فرفض رفضا قاطعا وكان ابن تيمية رحمه الله في صفه يشد من أزره ويقوي من عزيمته رافعا همته مذكرا له بفضل الشام ومكانتها في الإسلام فكان نعم البطانة الصالحة والناصح الأمين، وللعلم فإن الشام كانت فعليا تحت حكم التتار باستثناء قلعة دمشق التي صمدت صمودا لا يذكره التاريخ إلا مرادفا لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

قال ابن كثير رحمه الله: «وفي يوم الاثنين عاشر الشهر قدم الأمير سيف الدين قبجق المنصوري ، فنزل بالميدان، واقترب جيش التتار، وكثر العيث في ظاهر البلد، وقتل جماعة، وغلت الأسعار بالبلد جدا، وضاق الحال عليهم، وأرسل قبجق إلى نائب القلعة ليسلمها إلى التتار، فامتنع أرجواش من ذلك أشد الامتناع، فجمع له قبجق أعيان البلد ، فكلموه أيضاً ، فلم يجبهم إلى ذلك ، وصمم على ترك تسليمها إليهم وفيها عين تطرف ، فإن الشيخ تقي الدين ابن تيمية أرسل إلى نائب القلعة يقول له ذلك ، فاشتد عزمه على ذلك، وقال له: لو لم يبق فيها إلا حجر واحد، فلا تسلمهم ذلك إن استطعت. وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام، فإن الله تعالى حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزا لأهل الشام التي لا تزال دار أمان وسنة، حتى ينزل بها عيسى ابن مريم، عليه السلام».[٧١]

استمر التتار في غدرهم ونهبهم حتى أنهم في محلة الصالحية قاموا بسبي نساء المسلمين وأسروا نحو أربعة آلاف أسير واستباحوا حرمات المسلمين بشكل عام، فعزم الشيخ على الخروج إلى قازان لفضح غدره، لكن لم يكتب له اللقاء وبعد فترة وجيزة خرج قازان باتجاه العراق مولياً خلفه بولاي مع ستين ألف مقاتل و بقي بولاي مستمرا في السياسة نفسها

[٧٠] من مقالة: تقييم القاعدة من تعاليم ابن تيمية
[٧١] البداية والنهاية ١٠/١٤

في الغدر والنهب إلى أن أتى خبر قدوم الجيش المصري إلى الشام فانسحب بولاي بجيشه عن دمشق وأزاح الله عز وجل شرهم عن العباد والبلاد فخرج إليه ابن تيمية رحمه الله فاجتمع به في فكاك من كان معه من أسارى المسلمين، فاستنقذ كثيرا منهم وكان بينهم من أهل الذمة أيضاً.[٧٢]

٤ــتقوية العزائم وإزالة المنكرات:

لقد كان لتراجع التتار واقتراب الجيش المصري إلى الشام أثرا كبيرا في رفع معنويات الناس، وهنا كانت هناك مهمتين أخريين لم يتغافل عنهما شيخ الإسلام رحمه الله ألا وهي تقوية دفاعات المدينة وإزالة مظاهر الفساد بإحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإزالة حوانيت الخمر التي انتشرت في عهد أراجوش، وهذا واجب العلماء أن يطهروا المجتمع المسلم حتى يكون نقياً؛ لأنه لا يتأتى للمسلم أن يجاهد في سبيل الله على الوجه الذي ترجى عاقبته الحميدة إلا إذا أُعِدّ المجتمع المسلم بالإصلاح وبتطهيره من الأمراض الاجتماعية ومن المنكرات، فلا بد من إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في وسط الأمة حتى تتهيأ ويصح جسم الأمة من علله وأمراضه فتكون مستعدة للجهاد في سبيل الله، فتكون لها العزة التي كانت لها من قبل. إن أمة محمد صلى الله عليه وسلم فضلت على سائر الأمم بقول الله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]. ولقد حث ربنا على الأمر بالمعروف وذكّر به، قال تعالى في كتابه الكريم فقال: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤].
وقال تعالى : ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾[هود:١١٦]. ومعنى (أولوا بقية) أي: من صلاح، فالآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ينجيه الله تعالى .

[٧٢] انظر كتاب: رجال في الفكر والدعوة لأبي الحسن الندوي ص: ٦٥

قال ابن كثير رحمه الله: «وَبَقِيَ الْبَلَدُ لَيْسَ بِهِ أَحَدٌ، وَنَادَى أَرْجُوَاشُ في البلد احْفَظُوا الْأَسْوَارَ وَأَخْرِجُوا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ مِنَ الْأَسْلِحَةِ وَلَا تُهْمِلُوا الْأَسْوَارَ وَالْأَبْوَابَ، وَلَا يَبِيتَنَّ أَحَدٌ إِلَّا عَلَى السُّورِ، وَمَنْ بَاتَ فِي دَارِهِ شُنِقَ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى الْأَسْوَارِ لِحِفْظِ البلاد، وكان الشيخ تقي الدين بن تيمية يدور كل ليلة على الْأَسْوَارِ يُحَرِّضُ النَّاسَ عَلَى الصَّبْرِ وَالْقِتَالِ وَيَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ الْجِهَادِ وَالرِّبَاطِ».[٧٣]

قال الشيخ علم الدين رحمه الله: «وفي بكيرة الجمعة المذكورة [السابع عشر من رجب سنة ٦٩٩] دار الشيخ تقي الدين ابن تيمية بدمشق على ما جدد من الخمارات فبدد الخمور وكسر الجرار وشق الظروف وعزر الخمارين هو وجماعته، ولازم الناس هذه الليالي المبيت على الأسوار وأظهروا عددًا حسنة وتحملاً وكان الشيخ تقي الدين وأصحابه يمشون على الناس ويقرأ الشيخ عليهم سور القتال وآيات الجهاد وأحاديث الغزو والرباط والحرس، ويحثهم على ذلك ويحرضهم».

٥_التعامل مع عملاء التتار والصلبيين:

لم يغب عن ذهن ابن تيمية رحمه الله خطورة عدو ماكر لطالما استعانت به كل قوة غازية لبلاد الإسلام من عصر أبيهم الروحي ابن سبأ لعنه الله مرورا بعهد الحملات الصلبية والتترية وصولا إلى وقتنا الحالي، ألا وهم الباطنية الرافضة، وخطر هؤلاء يكمن في تواجدهم في عمق الدولة المسلمة وغالبا ما يظهرون الإسلام ويبطنون عقيدتهم لتسهيل مهمتهم الخبيثة، فكان لزاما عليه إدخالهم في دائرة المواجهة كعدو واحد لا يختلف عن التتار والصلبيين بل يفوقهم غدرا وحقدا، فهم يرمون حبالهم ليتصيدوا كل موتور ومحب للسيادة وجاهل وصاحب عصبية ليقف في صفهم متبعا هواه فكذب واستكبر وعادى.

لقد سلك رحمه في مواجهة هؤلاء العملاء مسلكين: حيث قام بداية بفضحهم وبيان عقيدتهم الباطلة ومشروعهم التخريبي وفضح تعاونهم مع التتار والصلبين بالشواهد والحوادث، ثم أعمل فيهم سيف الحق قاطعا قرن عمالتهم في المنطقة.

---

[٧٣] البداية والنهاية، ١٣/١٤

أ_ كشفهم وفضحهم:

_ الباطنية من النصيرية وغيرهم:

قال رحمه الله: «وَمِنْ الْمَعْلُومِ عِنْدَنَا أَنَّ السَّوَاحِلَ الشَّامِيَّةَ إنَّمَا اسْتَوْلَى عَلَيْهَا النَّصَارَى مِنْ جِهَتِهِمْ، وَهُمْ دَائِمًا مَعَ كُلِّ عَدُوٍّ لِلْمُسْلِمِينَ؛ فَهُمْ مَعَ النَّصَارَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَمِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ عِنْدَهُمْ فَتْحُ الْمُسْلِمِينَ لِلسَّوَاحِلِ، وَانْتِهَارِ النَّصَارَى؛ بَلْ وَمِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ عِنْدَهُمْ انْتِصَارُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى التَّتَارِ. وَمِنْ أَعْظَمِ أَعْيَادِهِمْ إذَا اسْتَوْلَى - وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ تعالى - النَّصَارَى عَلَى ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ ثُغُورَ الْمُسْلِمِينَ مَا زَالَتْ بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى جَزِيرَةُ قُبْرُصَ يَسَّرَ اللَّهُ فَتْحَهَا عَنْ قَرِيبٍ، وَفَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ فِي خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ " عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ " - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، فَتَحَهَا " مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ " إلى أَثْنَاءِ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ.

فَهَؤُلَاءِ الْمُحَادُّونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ كَثُرُوا حِينَئِذٍ بِالسَّوَاحِلِ وَغَيْرِهَا فَاسْتَوْلَى النَّصَارَى عَلَى السَّاحِلِ؛ ثُمَّ بِسَبَبِهِمْ اسْتَوْلَوْا عَلَى الْقُدْسِ الشَّرِيفِ وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّ أَحْوَالَهُمْ كَانَتْ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي ذَلِكَ؛ ثُمَّ لَمَّا أَقَامَ اللَّهُ مُلُوكَ الْمُسْلِمِينَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تعالى " كَنُورِ الدِّينِ الشَّهِيدِ، وَصَلَاحِ الدِّينِ " وَأَتْبَاعِهِمَا؛ وَفَتَحُوا السَّوَاحِلَ مِنْ النَّصَارَى، وَمِمَّنْ كَانَ بِهَا مِنْهُمْ، وَفَتَحُوا أيضاً أَرْضَ مِصْرَ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَوْلِينَ عَلَيْهَا نَحْوَ مِائَتَيْ سَنَةٍ، وَاتَّفَقُوا هُمْ وَالنَّصَارَى، فَجَاهَدَهُمْ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى فَتَحُوا الْبِلَادَ، وَمِنْ ذَلِكَ التَّارِيخِ انْتَشَرَتْ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ بِالدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَالشَّامِيَّةِ.

ثُمَّ إنَّ التَّتَارَ مَا دَخَلُوا بِلَادَ الْإِسْلَامِ وَقَتَلُوا خَلِيفَةَ بَغْدَادَ وَغَيْرَهُ مِنْ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ لَا بِمُعَاوَنَتِهِمْ وَمُؤَازَرَتِهِمْ؛ فَإِنَّ مُنَجِّمَ هُولَاكُو الَّذِي كَانَ وَزِيرَهُمْ وَهُوَ " النُّصَيْرُ الطُّوسِيُّ "كَانَ وَزِيرًا لَهُمْ بِالْأَلْمُوتِ، وَهُوَ الَّذِي أَمَرَ بِقَتْلِ الْخَلِيفَةِ وَبِوِلَايَةِ هَؤُلَاءِ.

وَلَهُمْ " أَلْقَابٌ " مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ تَارَةً يُسَمَّوْنَ " الْمَلَاحِدَةَ " وَتَارَةً يُسَمَّوْنَ " الْقَرَامِطَةَ " وَتَارَةً يُسَمَّوْنَ " الْبَاطِنِيَّةَ " وَتَارَةً يُسَمَّوْنَ " الْإِسْمَاعِيلِيَّة " وَتَارَةً يُسَمَّوْنَ " النُّصَيْرِيَّةَ " وَتَارَةً يُسَمَّوْنَ " الخرمية "، وَتَارَةً يُسَمَّوْنَ " الْمُحَرِّمَةَ " وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ مِنْهَا مَا

يَعُمُّهُمْ، وَمِنْهَا مَا يَخُصُّ بَعْضَ أَصْنَافِهِمْ، كَمَا أَنَّ الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ يَعُمُّ الْمُسْلِمِينَ وَلِبَعْضِهِمْ اسْمٌ يَخُصُّهُ إِمَّا لِنَسَبٍ، وَإِمَّا لِمَذْهَبٍ، وَإِمَّا لِبَلَدٍ، وَإِمَّا لِغَيْرِ ذَلِكَ».[٧٤]

ويعتبر المستشرق الغربي جون هوفر أن التخلص من هؤلاء عامل مهم من عوامل سلامة المجتمع المسلم ويعتبر أن ابن تيمية هو الوحيد من بين كثير من العلماء الذي قام بالتأصيل الشرعي لحال هؤلاء الباطنية في عصره حيث يقول: «كان النصيرية قد انحازت إلى الغزاة المغول ضدّ المماليك ... ويجادل ابن تيمية بأن الجهاد ضدهم (الباطنية) أولوية أعلى من الجهاد ضد اليهود والمسيحيين بسبب الحاجة لحماية سلامة المجتمع المسلم. .... لقد كان ابن تيمية هو الباحث الوحيد الذي كتب الفتاوى ضدّ النصيرية في العصور الوسطى».[٧٥]

ب_ الروافض:

قال رحمه الله: «وَمَذْهَبُ الرَّافِضَةِ شَرٌّ مِنْ مَذْهَبِ الْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ، فَإِنَّ الْخَوَارِجَ غَايَتُهُمْ تَكْفِيرُ عُثْمَانَ، وَعَلِيٍّ، وَشِيعَتِهِمَا، وَالرَّافِضَةَ تَكْفِيرُ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَجُمْهُورِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، وَتَجْحَدُ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَعْظَمَ مِمَّا جَحَدَ بِهِ الْخَوَارِجُ، وَفِيهِمْ مِنْ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ وَالْغُلُوِّ وَالْإِلْحَادِ مَا لَيْسَ فِي الْخَوَارِجِ، وَفِيهِمْ مِنْ مُعَاوَنَةِ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا لَيْسَ مِنْ الْخَوَارِجِ، وَالرَّافِضَةِ تُحِبُّ التَّتَارَ وَدَوْلَتَهُمْ لِأَنَّهُ يَحْصُلُ بِدَوْلَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالرَّافِضَةُ هُمْ مُعَاوِنُونَ لِلْمُشْرِكِينَ وَاليهودِ وَالنَّصَارَى عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ كَانُوا مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي دُخُولِ التَّتَارِ قَبْلَ إسْلَامِهِمْ إلى أَرْضِ الْمَشْرِقِ بِخُرَاسَانَ، وَالْعِرَاقِ، وَالشَّامِ، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ مُعَاوَنَةً لَهُمْ عَلَى أَخْذِهِمْ لِبِلَادِ الْإِسْلَامِ وَقَتْلِ الْمُسْلِمِينَ وَسَبْيِ حَرِيمِهِمْ، وَقَضِيَّةُ ابْنِ الْعَلْقَمِيِّ وَأَمْثَالِهِ مَعَ الْخَلِيفَةِ وَقَضِيَّتُهُمْ فِي حَلَبَ مَعَ صَاحِبِ حَلَبَ مَشْهُورَةٌ يَعْرِفُهَا عُمُومُ النَّاسِ.

وَكَذَلِكَ فِي الْحُرُوبِ الَّتِي بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ النَّصَارَى بِسَوَاحِلِ الشَّامِ قَدْ عَرَفَ أَهْلُ الْخِبْرَةِ أَنَّ الرَّافِضَةَ تَكُونُ مَعَ النَّصَارَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُمْ عَاوَنُوهُمْ عَلَى أَخْذِ الْبِلَادِ لَمَّا جَاءَ التَّتَارُ وَعَزَّ عَلَى الرَّافِضَةِ فَتْحُ عَكَّا وَغَيْرِهَا مِنْ السَّوَاحِلِ، وَإِذَا غَلَبَ الْمُسْلِمُونَ

[٧٤] مجموع الفتاوى _ ٥٠٣/٣

[٧٥] مقدمة عن نشاط ابن تيمية المناهض للمغول، ص: ٧

النَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ كَانَ ذَلِكَ غُصَّةً عِنْدَ الرَّافِضَةِ، وَإِذَا غَلَبَ الْمُشْرِكُونَ وَالنَّصَارَى الْمُسْلِمِينَ كَانَ ذَلِكَ عِيدًا، وَمَسَرَّةً عِنْدَ الرَّافِضَةِ، وَدَخَلَ فِي الرَّافِضَةِ أَهْلُ الزَّنْدَقَةِ وَالْإِلْحَادِ مِنْ النُّصَيْرِيَّةِ، وَالْإِسْمَاعِيلِيَّة، وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ الْمَلَاحِدَةِ الْقَرَامِطَةِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ كَانَ بِخُرَاسَانَ، وَالْعِرَاقِ، وَالشَّامِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالرَّافِضَةُ جَهْمِيَّةٌ قَدَرِيَّةٌ، وَفِيهِمْ مِنْ الْكَذِبِ وَالْبِدَعِ وَالِافْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَعْظَمُ مِمَّا فِي الْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَلْ فِيهِمْ مِنْ الرِّدَّةِ عَنْ شَرَائِعِ الدِّينِ أَعْظَمُ مِمَّا فِي مَانِعِي الزَّكَاةِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَالصَّحَابَةُ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَا ذَمَّ بِهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْخَوَارِجَ قَوْلُهُ: «فَهُمْ يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَدْيَانِ».[٧٦]

ب_ إعمال السلاح في إخماد فتنتهم:

الحل مع هؤلاء لا يمكن أن يكون بالطرق السلمية، ولا يحتمل التأجيل فكبر هذا النخر في هذه الأمة فلا بد من استئصال هذا الورم الخبيث كي يأمن المسلمون من عدم الطعن في ظهورهم عند ملاقاة التتار، وهذا كان رأي ابن تيمية رحمه الله في التعامل مع أهل كسروان من الباطنيين والاسماعيليين الذين طعنوا المسلمين وعاونوا التتار.

قال ابن كثير رحمه الله: «وفي يوم الجمعة العشرين منه رَكِبَ نَائِبُ السَّلْطَنَةِ جَمَالُ الدِّينِ آقُوشُ الْأَفْرَمُ فِي جَيْشِ دِمَشْقَ إلى جِبَالِ الْجَرَدِ وَكَسْرُوَانَ، وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية ومعه خلق كثير من المتطوعة وَالْحَوَارِنَةِ لِقِتَالِ أَهْلِ تِلْكَ النَّاحِيَةِ، بِسَبَبِ فَسَادِ نيتهم وَعَقَائِدِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ، وَمَا كَانُوا عَامَلُوا بِهِ الْعَسَاكِرَ لَمَّا كَسَرَهُمُ التَّتَرُ وَهَرَبُوا حِينَ اجْتَازُوا بِبِلَادِهِمْ، وَثَبُوا عَلَيْهِمْ وَنَهَبُوهُمْ وَأَخَذُوا أَسْلِحَتَهُمْ وَخُيُولَهُمْ، وَقَتَلُوا كَثِيرًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا وَصَلُوا إلى بِلَادِهِمْ جاء رؤساؤهم إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية فاستتابهم وبين للكثير مِنْهُمُ الصَّوَابَ وَحَصَلَ بِذَلِكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَانْتِصَارٌ كَبِيرٌ عَلَى أُولَئِكَ الْمُفْسِدِينَ».[٧٧]

---

[٧٦] مجموع الفتاوى_ ٥٤٧/٣

[٧٧] البداية والنهاية ١٤/١٤

وفي موضع آخر قال: «وفي محرّم سنة خمس وسبعمائة توجّه مع الأفرم إلى جبل كسروان وغزا أهله وشدّ في وسطه السيف والتركاش وأفتى بقتالهم، وعاد وقد انتصر عليهم».[٧٨]
نلاحظ دائما أن الشيخ رحمه الله رجل علم وعمل يفتي في المسألة ثم يكون على رأس من يطبقها وهذا من أكثر ما يجعل الناس تثق به وبعلمه.

٦ــوإن عدتم عدنا:

لم يصل سلطان مصر إلى الشام بل قد جاءت الأخبار أنه رجع عائدا إلى مصر، وبنفس الوقت جاء الخبر باقتراب التتار من دمشق ليعود الخوف من جديد إلى الأهالي، فما كان من شيخ الإسلام رحمه الله إلا ليسرع إلى الثغور يثبت العسكر وينطلق إلى سلطان مصر يحرضه على القدوم مجاهدا مدافعا عن الشام.
قال ابن كثير رحمه الله : «واستهل جمادى الأولى والناس على خُطةٍ صعبةٍ من الخوف، وتأخُّر السلطانِ واقتراب العدوّ، وشدةِ الأمرِ والحالِ، وخرج الشَّيخ تقيّ الدين بن تَيْمِيَّة رحمه الله تعالى في مستهلّ هذا الشهر - وكان يوم السبت - إلى نائب الشَّام وعساكره بالمرج. فثبَّتهم، وقوّى جأشهم، وطيّب قلوبهم، ووعدهم النصر والظفر على الأعداء.
وتلا قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ﴾{ الحج:٦٠}، وبات عند العسكر ليلة الأحد، ثمَّ عاد إلى دمشق وقد سأله النائب والأمراء أَنْ يركب على البريد إلى مصر يستحثُّ السلطان على المجيء.
فساق وراء السلطان. وكان السلطان قد وصل إلى الساحل، فلم يدركه إلا وقد رجع إلى القاهرة وتفارط الحال. لكنه استحثهم على تجهيز العساكر إلى الشَّام إِنْ كَانَ لهم به حاجة.
وقال لهم فيما قال: «إِنْ كنتم أعرضتم عن الشَّام وحمايته، أقمنا له سلطانًا يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن». ولم يزل بهم حتَّى جُرِّدَت العساكر إلى الشَّام».[٧٩]

[٧٨] الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، ص:٥٠٣
[٧٩] البداية والنهاية،١٤/١٨

قال ابن كثير رحمه الله: «وفي مستهل صفر وردت أخبار بقصد التتر بِلَادَ الشَّامِ، وَأَنَّهُمْ عَازِمُونَ عَلَى دُخُولِ مِصْرَ، فَانْزَعَجَ النَّاسُ لِذَلِكَ وَازْدَادُوا ضَعْفًا عَلَى ضَعْفِهِمْ، وَطَاشَتْ عُقُولُهُمْ وَأَلْبَابُهُمْ، وَشَرَعَ النَّاسُ فِي الْهَرَبِ إلى بِلَادِ مِصْرَ وَالْكَرَكِ وَالشَّوْبَكِ وَالْحُصُونِ الْمَنِيعَةِ، فبلغت الحمارة إلى مِصْرَ خَمْسَمِائَةٍ وَبِيعَ الْجَمَلُ بِأَلْفٍ وَالْحِمَارُ بِخَمْسِمِائَةٍ، وَبِيعَتِ الْأَمْتِعَةُ وَالثِّيَابُ وَالْغَلَّاتُ بِأَرْخَصِ الْأَثْمَانِ، وجلس الشيخ تقي الدين بن تَيْمِيَةَ فِي ثَانِي صَفَرٍ بِمَجْلِسِهِ فِي الْجَامِعِ وحرَّض النَّاسَ عَلَى الْقِتَالِ، وَسَاقَ لَهُمُ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ، وَنَهَى عَنِ الْإِسْرَاعِ فِي الْفِرَارِ، وَرَغَّبَ فِي إِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ فِي الذَّبِّ عَنِ الْمُسْلِمِينَ وَبِلَادِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَأَنَّ مَا يُنْفَقَ فِي أُجْرَةِ الْهَرَبِ إِذَا أُنْفِقَ فِي سبيل الله كَانَ خَيْرًا، وَأَوْجَبَ جِهَادَ التَّتَرِ حَتْمًا فِي هَذِهِ الْكَرَّةِ».[٨٠]

٧ــابن تيمة رجل معركة شقحب بكل المعايير:

أ ــ تحريض السلطان والأمراء:

في رجب سنة ٧٠٢ هـ شاعت الأخبار بعزم التتار على دخول بلاد الشام، فأصاب الناس ذعر وهلع وخوف شديد، وبدؤوا في الخروج إلى الديار المصرية، وهنا يبرز أثر الشيخ فيقف ويهدّئ الناس ويطمئنهم ويعدهم النصر، ويحثهم على الجهاد، ويأمرهم بالصبر والمصابرة، ويكثر من الابتهال إلى الله والتضرع إليه.

وفي هذه الأثناء سار إلى السلطان وحثه على قتال التتار فأجابه إلى ذلك، وكان يحلف للأمراء والناس إنهم لمنصورون، فيقول له الأمراء: قل: إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا. وكان يتلو بعض الآيات في ذلك.

قال العلامة ابن فضل العمري رحمه الله: «وحكي من شجاعته في مواقف الحرب نوبة شَقْحب ونوبة كسروان مالم يُسمع إلاَّ عن صناديد الرجال وأبطالِ اللقاء وأحلاسِ الحرب، تارةً يباشر القتال، وتارةً يُحرّض عليه. وركب البريد إلى مهنّا بن عيسى واستحضره إلى الجهاد، وركب بعدها إلى السلطان واستنفره، وواجه بالكلام الغليظ أمراءه وعسكره،

[٨٠] البداية والنهاية، ١٤/١٧

ولما جاء السلطان إلى شَقْحب لاقاه إلى قرن الحرَّة، وجعل يشجّعه ويُثبته، فلما رأى السلطان كثرة التَّتار قال: يا لخالد بن الوليد!! فقال له: لا تقل هذا، بل قل يا الله، واستغثْ بالله ربّك، ووحِّده وحدَه تُنْصر، وقل: يا مالكَ يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين. ثم ما زال يُقبل تارةً على الخليفة وتارةً على السلطان ويُهدّئُهما ويَربِط جأشهما حتَّى جاءَ نصرُ الله والفتح وحُكي أَنَّه قال للسلطان: اثبُتْ فأنت منصور، فقال له بعض الأمراء: قل إن شاء الله تعالى ، فقال: إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا، فكان كما قال.»[٨١]

ومن مواقفه البطولية التي خلدها التاريخ عند ما سار جيش التتار إلى الشام، ابتدر شيخ الإسلام وذهب مع البريد إلى مصر ودخل على السلطان، وخاطبه بقوة قائلا له: «إن تخليتم عن الشام ونصرة أهله، والذب عنهم» وهدده بأن أهل الشام سيقيمون لهم من يحميهم ويقوم بأمرهم فأجابه السلطان إلى ما أراد.[٨٢]

ب_ الرد على شبهة إسلام التتار:

لقد واجه المسلمين شبهةٌ عظيمةٌ جعلتهم يتوقفون في قتال التتار كونهم قد أظهروا الإسلام ونطقوا بالشهادتين وهذه شبهة خطيرة مطروحة في كل زمان ومكان خاصة على بعض الطواغيت الذين يمارسون بطشهم وظلمهم على الناس وإذا ما قام الناس للقيام عليهم كان المدافع عنهم للأسف هم مشايخ السلطة فيطرحون نفس الشبهة: حكام مسلمون وينطقون بالشهادتين وأسماءهم محمد وعمر وبكر وهنا يأتي دور أهل الحق في تبيان الحق وكشف الزيغ بالحجة والبرهان فقد سئل عن حال التتار وشبهة كونهم ينطقون بالشهادتين فكيف نرفع السلاح بوجههم فجاء بجواب مفصل مؤصل.

جاء في فتاويه رحمه الله: «كُلُّ طَائِفَةٍ خَرَجَتْ عَنْ شَرِيعَةٍ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ فَإِنَّهُ يَجِبُ قِتَالُهَا بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ تَكَلَّمَتْ بِالشَّهَادَتَيْنِ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِالشَّهَادَتَيْنِ وَامْتَنَعُوا عَنْ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَجَبَ قِتَالُهُمْ حَتَّى يُصَلُّوا، وَإِنْ امْتَنَعُوا عَنْ الزَّكَاةِ، وَجَبَ قِتَالُهُمْ حَتَّى يُؤَدُّوا الزَّكَاةَ، وَكَذَلِكَ إنْ امْتَنَعُوا عَنْ صِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ، أَوْ

[٨١] مسَالِكُ الأَبْصَار في مَمَالِكِ الأَمْصَار للعلاَّمة/ أحمد بن يحيى ابن فضل الله العُمَري

[٨٢] انظر: ذيل طبقات الحنابلة (٤/ ٣٩٥ - ٣٩٦)

حَجّ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، وَكَذَلِكَ إنْ امْتَنَعُوا عَنْ تَحْرِيمِ الْفَوَاحِشِ، أَوْ الزِّنَا، أَوْ الْمَيْسِرِ، أَوْ الْخَمْرِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مُحَرَّمَاتِ الشَّرِيعَةِ وَكَذَلِكَ إنْ امْتَنَعُوا عَنْ الْحُكْمِ فِي الدِّمَاءِ، وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ، وَالْأَبْضَاعِ، وَنَحْوِهَا بِحُكْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَكَذَلِكَ إنْ امْتَنَعُوا عَنْ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَجِهَادِ الْكُفَّارِ إلى أَنْ يُسْلِمُوا وَيُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ».

وقال رحمه الله: «وقد تكلّم الناسُ في كيفيّة قتال هؤلاء التتر من أيّ قبيل هو؟ فإنهم يُظهرون الإسلام، وليسوا بُغاة على الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقتٍ ثمَّ خالفوه. فقال الشَّيخ تقيّ الدين: هؤلاء من جنس الخوارج الَّذين خرجوا على عليّ ومعاوية. ورأوا أنهم أحقّ بالأمر منهما. وهؤلاء يزعمون أنهم أحقّ بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبّسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مُضاعفَة. فتفطَّنَ العلماءُ والناسُ لذلك. وكان يقولُ للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتشجَّع الناسُ في قتال التَّتار، وقويت قلوبهم ونيَّاتهم ولله الحمد».[٨٣]

ج_ ابن تيمية ومحبته لأرض الشام وأهلها:

جعل شيخ الإسلام المعركة معركة المسلمين جميعا لاغيا الحدود والمسافات والأقطار والأوطان فلابد من اجتماع أهل الإيمان لمواجهة أهل الأوثان وهذا لمسناه واضحا في التحاق الكثير من المسلمين خارج دمشق بدعوة ابن تيمية للجهاد والدفاع عنها وساعده في ذلك أهمية الشام في الكتاب والسنة ومنزلتها الرفيعة التي ثبتت لها فيهما.

قال رحمه الله: «ثَبَتَ لِلشَّامِ وَأَهْلِهِ مَنَاقِبُ: بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَآثَارِ الْعُلَمَاءِ. وَهِيَ أَحَدُ مَا اعْتَمَدْته فِي تَحْضِيضِي الْمُسْلِمِينَ عَلَى غَزْوِ التَّتَارِ وَأَمْرِي لَهُمْ: بِلُزُومِ دِمَشْقَ وَنَهْيِي لَهُمْ عَنْ الْفِرَارِ إلى مِصْرَ وَاسْتِدْعَائِي الْعَسْكَرَ الْمِصْرِيَّ إلى الشَّامِ وَتَثْبِيتِ الشَّامِيِّ فِيهِ. وَقَدْ جَرَتْ فِي ذَلِكَ فُصُولٌ مُتَعَدِّدَةٌ..... وَقَدْ ظَهَرَ مِصْدَاقُ هَذِهِ النُّصُوصِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ

[٨٣] البداية والنهاية، ١٤/٢٨

فِي جِهَادِنَا لِلتَّتَارِ وَأَظْهَرَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ صِدْقَ مَا وَعَدْنَاهُمْ بِهِ وَبَرَكَةَ مَا أَمَرْنَاهُمْ بِهِ وَكَانَ ذَلِكَ فَتْحًا عَظِيمًا مَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ مِثْلَهُ مُنْذُ خَرَجَتْ مَمْلَكَةُ التَّتَارِ الَّتِي أَذَلَّتْ أَهْلَ الْإِسْلَامِ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يُهْزَمُوا وَيُغْلَبُوا كَمَا غُلِبُوا عَلَى " بَابِ دِمَشْقَ " فِي الْغَزْوَةِ الْكُبْرَى. الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا فِيهَا مِنْ النِّعَمِ بِمَا لَا نُحْصِيهِ: خُصُوصًا وَعُمُومًا. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَاهُ وَكَمَا يَنْبَغِي لِكَرَمِ وَجْهِهِ وَعِزِّ جَلَالِهِ».

وكما كان يحب أرض الشام فكان يحب جند الشام أهل الشام وفضّل القتال في صفهم رافضا طلب السلطان بالقتال إلى جانبه في المعركة، وهذا الموقف من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تقسيم مجموعات الجيش حسب القبائل وتنصيب قائد كل قبيلة من أبناءها وجعل راية خاصة بهم، وفي هذا الأمر مصلحة كبيرة في إلهاب الحماس وزيادة التفاهم بين القائد وعناصره.

قال ابن كثير رحمه الله: «فسأله السلطان أَنْ يقف الرَّجل تحت راية قومه. ونحن من جيش الشَّام لا نقف إلاّ معهم».[٨٤]

د_ فتوى جواز الفطر في المعركة:

أفتى رحمه الله لأفراد الجيش المسلم بجواز الفطر مدة قتالهم كون المعركة كانت في شهر رمضان المبارك شهر الانتصارات والفتوحات، وليكون هذا أقبل للنفوس أوضح هذا عمليّا، فكان يدور على الأمراء والجند، ويأكل من شيء معه في يده.

ويقول: «إن الفطر أقوى لكم» ويتأول فعل النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الفتح.

قال ابن كثير رحمه الله: «وَأَفْتَى النَّاسَ بِالْفِطْرِ مُدَّةَ قِتَالِهِمْ وَأَفْطَرَ هُوَ أيضاً، وَكَانَ يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء مَعَهُ فِي يَدِهِ لِيُعْلِمَهُمْ أَنَّ إِفْطَارَهُمْ لِيَتَقَوَّوْا عَلَى الْقِتَالِ أَفْضَلُ فَيَأْكُلُ النَّاسُ، وَكَانَ يَتَأَوَّلُ فِي الشَّامِيِّينَ قَوْلَهُ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم " إنَّكم ملاقوا

[٨٤] البداية والنهاية، ٣٠/١٤

الْعَدُوِّ غَدًا، وَالْفِطَرُ أَقْوَى لَكُمْ "[٨٥] فَعَزَمَ عَلَيْهِمْ فِي الْفِطْرِ عَامَ الْفَتْحِ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ».[٨٦]

هـ_ تحريض باللسان وقتال بالجوارح:

لم يكتفِ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بالتأصيل الشرعي للمعركة وقعد في بيته أو اعتكف في مسجده بل قام بالمجاهدين محرضا على الجهاد في سبيل الله ودفع التتار عن أعراض المسلمين وحرماتهم متوكلا على الله عز وجل موقنا بنصره ملهبا الحماس بقلوب الجيش المسلم يرغبهم بجنة المولى عز وجل ومشجعا لهم على البذل والتضحية والشهادة، فارتفعت معنويات الصف المسلم وقويت عزائمهم برؤية قدوتهم وشيخهم بجانبهم يحمل همهم وقضيتهم ويشحذ هممهم بإيمانه.

وهنا تضرب أروع الأمثال بالبطولة والشجاعة وتترجم الأقوال إلى أفعال من عالم صدق ما عاهد الله عليه فها هو رحمه الله ينزل إلى الميدان مرسلاً رسالة عظيمة إلى كل من حمل لواء العلم: أن موازين الرجال تعرف في ساحات النزال، فكم من الهمم قد رفع وكم من الشباب القاعد سيتخلى عن قعوده ويلتحق بالركب وهو يرى شيبة العلم في ساحات الوغى يطبق ما كان يحرض عليه ويدعو له، وكما خدم قضيته بصبره وقلمه ولسانه يخدمها اليوم بجوارحه باذلاً روحه رخيصة في سبيل الله عز وجل.

قال تعالى : ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلا (٨٤)﴾{ النساء: ٨٤}.

يربط الله عز وجل في هذه الآية بين المباشرة بالقتال وتحريض المؤمنين عليه. فأمر عز وجل أولا بالقتال ثم أمر بالتحريض فيكون للمحرض أثرا أقوى عندما يجمع بين القتال والتحريض، وهكذا كان ابن تيمية رحمه الله يحرض تارة ويقاتل تارة فيجتمع الناس ويلبون

---

[٨٥] عَنْ رَبِيعَةَ، عَنْ يَزِيدَ، حَدَّثَنِي قَزْعَةُ قَالَ: أَتَيْتُ أَبَا سَعِيدٍ وَهُوَ مَكْثُورٌ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْهُ قُلْتُ: لَا أَسْأَلُكَ عَمَّا يَسْأَلُكَ هَؤُلَاءِ عَنْهُ ، وَسَأَلْتُهُ عَنِ الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ ، فَقَالَ: سَافَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى مَكَّةَ وَنَحْنُ صِيَامٌ ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ قَدْ دَنَوْتُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ» ، فَكَانَتْ رُخْصَةً ، فَمِنَّا مَنْ صَامَ ، وَمِنَّا مَنْ أَفْطَرَ ، ثُمَّ نَزَلْنَا مَنْزِلًا آخَرَ ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ مُصَبِّحُو عَدُوِّكُمْ ، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ ، فَأَفْطِرُوا» ، فَكَانَتْ عَزْمَةً فَأَفْطَرْنَا .
(صحيح ابن خزيمة _(٢٠٢٣)_ بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا أَمَرَ أَصْحَابَهُ بِالْفِطْرِ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ إِذِ الْفِطْرُ أَقْوَى لَهُمْ عَلَى الْحَرْبِ، لَا أَنَّ الصَّوْمَ فِي السَّفَرِ غَيْرُ جَائِزٍ

[٨٦] البداية والنهاية،١٤/٣٠

النداء. ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة في هذا الجانب فعندما كان يحرض المؤمنين بعبارة قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض كان أسرعهم إليها فداه أبي وأمي.

ربما سيقول قائل: لو أن الشيخ أبعد نفسه عن مواطن الهلكة فأمثاله يجب المحافظة على حياتهم من أجل الحفاظ على الدعوة. ونترك الإجابة للشيخ عبد الله عزام رحمه الله عز وجل: (إن كلماتنا ستبقى ميتةً لا حراك فيها هامدةً أعراساً من الشموع، فإذا متنا من أجلها انتفضت و عاشت بين الأحياء، كل كلمة قد عاشت كانت قد اقتاتت قلب إنسان حي فعاشت بين الأحياء، و الأحياء لا يتبنون الأموات).[٨٧]

وقال تلميذه ابن عبد الهادي يصف شجاعته رحمه الله: «ولقد أخبرني حاجب من الحجاب الشاميين؛ أمير من أمرائهم ذو دين متين، وصدق لهجة معروف في الدولة قال: قال لي الشيخ يوم اللقاء ونحن بمرج الصُّفَّر وقد تراءى الجمعان: يا فلان أوقفني موقف الموت. قال: فسقته إلى مقابلة العدو وهم منحدرون كالسيل تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم. ثم قلت: يا سيدي هذا موقف الموت، وهذا العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة، فدونك وما تريد. قال: فرفع طرفه إلى السماء، وأشخص ببصره، وحرك شفتيه طويلاً، ثم انبعث وأقدم على القتال ... ثم حال القتال بيننا والالتحام، وما عدت رأيته حتى فتح الله ونصر».[٨٨]

وقال ابن فضل العمري عن الإمام ابن تيمية «وحكي من شجاعته في مواقف الحرب نوبة شقحب ونوبة كسروان ما لم يُسمع إلا عن صناديد الرجال وأبطال اللقاء وأحلاس الحرب».[٨٩]

قال الذهبي رحمه الله : «وَأما شجاعته فبها تضرب الْأَمْثَال وببعضها يتشبه أَكَابِر الْأَبْطَال».[٩٠]

---

[٨٧] https://youtu.be/b_H5bSopzok

[٨٨] العقود الدرية ص ١٧٧-١٧٨.

[٨٩] الجامع لسيرة ابن تيمية خلال سبعة قرون _ص١٢٠

[٩٠] الرد الوافر _ص:٣٤

٨ــ وكان حقا على الله نصر المؤمنين:

عندما تستجمع أسباب النصر وتتخلص من أسباب الهزيمة متوكلا على الله عز وجل موقناً بنصره فإن الله عز وجل سيمنحك النصر من عنده مهما كانت إمكانياتك ضعيفة وكانت موازين القوة العسكرية والعتاد الحربي لصالح عدوك، لطالما كان اسم التتار مربوطا بالرعب والذعر وكان يخيف الناس حتى قبل أن يصلوا إليهم، لقد كانوا أصحاب قوة ونفوذ وبلغت سيطرتهم مساحات واسعة من بلاد المسلمين بل حتى بلاد الشام معظمها كانت تحت سيطرتهم ولم يبقَ إلا قلعة دمشق التي بقيت عصية عليهم وأسقطت أسطورة التتار بقوة الله عز وجل.

يقول الأستاذ المودودي بعد أن ذكر عمل ابن تيمية التجديدي: «مضافا إلى هذا العمل التجديدي جاهد بالسيف همجية التتر ووحشيتهم. كانت بلاد مصر والشام عند ذلك بمفازة من هذا السيل، فنفث الإمام في قلوب الرؤساء وعامة المسلمين هناك روح الغيرة والحمية والحماس وحرضهم على مقاومة أولئك. وقد شهد معاصرو الإمام أن المسلمين كان بلغ منهم الخوف والفزع من التتر أن كانوا يرتعشون لمجرد ما يسمعون من ذكرهم، وكانوا يحجمون عن لقائهم خوفا وذعرا، كأنما يساقون إلى الموت، ولكن ابن تيمية أيقظ فيهم روح الشجاعة والاستبسال بما بث في قلوبهم من التحمس وحب الجهاد».[٩١]

قال تلميذه ابن عبد الهادي رحمه الله: «وفي أول شَهْر رمضان من سَنَة اثنتين وسبعِمائة كانت وَقعة شَقْحَب المَشهورة، وحَصَل للناس شدّة عظيمة، وظَهَر فيها من كرامات الشيخ وإجابة دعائه، وعظيم جهاده وقوة إيمانه، وشدّة نُصحِه للإسلام وفَرْطِ شجاعته، ونهايةِ كَرَمه، وغيرِ ذلك من صفاته، ما يَفوق النّعت، ويَتجاوَز الوصفَ. ولقد قَرأتُ بخطّ بَعض أصحابه -وقد ذكر هذه الواقعة- قال: واتفقَت كلمة إجماعِهم على تعظيم الشيخ تَقي الدين ومَحبتِه، وسماعِ كلامه ونَصيحتِه، واتَّعَظوا بمَواعِظه، ولم يبق من مُلوك الشام تُرْكيّ ولا عَرَبيّ إلا واجتمع بالشيخ في تلك المُدّة، واعتقد خَيره وصَلاحه ونُصحَه لله ولرسوله

[٩١] موجز تاريخ تجديد الدين، ص: ٩٠

وللمؤمنين. قال: ثم ساق الله سبحانه جيش الإسلام العَرَمْرَم المصريّ، صَحِبه أمير المؤمنين والسلطان الملكُ الناصر، وولاةُ الأمْر وزُعماء الجيش وعُظماءُ المَملَكة سَوقًا حَثيثًا لِلِقاء التَّتار المَخذولين، فاجتمع الشيخ بالخليفة والسلطان وأَربابِ الحَلّ والعَقْد وأعيانِ الأمراء عن آخرِهم، وكُلّهم بمَرْج الصُّفَّر قِبليّ دِمَشق، وبَقي الشيخ هو وأخوه وأصحابُه ومَن معه مِن الغُزاة قائمًا، يُوصي الناسَ بالثَّبات، ويَعِدهم بالنّصْر، ويُبشّرهم بالغنيمة والفَوزِ بإحدى الحُسنَيَين إلى أن صَدَق اللهُ وَعدَه، وأَعزّ جُندَه، وهَزَم التَّتارَ وحده، ونَصَر المؤمنين، وهُزِم الجَمعُ ووَلَّوا الدُّبُر، وكانت كلمة الله هي العُليا، وكلمةُ الكفار هي السُّفلى، وقُطِع دابرُ القوم الكفار، والحمد لله رب العالمين. ودَخَل جيش الإسلام المَنصور إلى دِمَشق المَحروسة، والشيخ في أصحابه شاكيًا سِلاحَه، داخلا معهم، عالِيةً كَلِمتُه، قائمةً حُجّته، ظاهرةً وِلايته، مَقبُولةً شَفاعتُه، مُجابةً دعْوتُه، مُلتمَسة بَرَكته، مُكرَّما مُعظّمًا، ذا سلطان وكَلِمة نافِذةٍ،».[٩٢]

موقف ابن تيمية من القتال تحت راية المماليك

الإمام ابن تيمية رحمه الله قاتل مع المماليك ضد الصليبيين وضد التتار، وكذلك العز بن عبد السلام قبله قاتل مع المماليك ضد التتار، وأئمة المسلمين قاتلوا مع الأيوبيين ضد الصليبيين، وقاتلوا مع الظاهر بيبرس، وحال المماليك في ذلك الوقت لم يكونوا كما يجب شرعا وسلوكا وعدالة، لكن كانوا ضمن دائرة الإسلام فهل قال أحد قط أنه لا يجوز دفع التتار والصليبيين مع المماليك؟ لكن الفارق أن العلماء كانوا قبل وبعد المعارك يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر، ويشنعون عليهم وينبهونهم إلى مشاكل القبور والبدع والفسوق، حتى أن الإمام ابن تيمية أمضى نصف عمره في مشاكل مع الحكام، من أجل هذه القضايا، وسجن بسببها كثيرا، لكن لما دخل التتار الشام كان على رأس المقاتلين، بل هو الذي حشد الناس على قتالهم، ولم يقل لأحد: كيف نخرج مع أناس عندهم مشاكل

[٩٢] العُقود الدُّريّة، ١٧٥- ١٧٧.

وانحرافات في العقائد، بل إنه حكى الإجماع على أن الصائل يدفع بالمتيسر، ولا يشترط له شرط.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وَأَمَّا قِتَالُ الدَّفْعِ فَهُوَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ دَفْعِ الصَّائِلِ عَنْ الْحُرْمَةِ وَالدِّينِ فَوَاجِبٌ إجْمَاعًا فَالْعَدُوُّ الصَّائِلُ الَّذِي يُفْسِدُ الدِّينَ وَالدُّنْيَا لَا شَيْءَ أَوْجَبَ بَعْدَ الْإِيمَانِ مِنْ دَفْعِهِ فَلَا يُشْتَرَطُ لَهُ شَرْطٌ بَلْ يُدْفَعُ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ».[٩٣]

وقال أيضاً رحمه الله: «اجْتِمَاعُ الْقُوَّةِ وَالْأَمَانَةِ فِي النَّاسِ قَلِيلٌ؛ وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَشْكُو إلَيْك جَلَدَ الْفَاجِرِ وَعَجْزَ الثِّقَةِ. فَالْوَاجِبُ فِي كُلِّ وِلَايَةٍ الْأَصْلَحُ بِحَسْبِهَا. فَإِذَا تَعَيَّنَ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ أَمَانَةً وَالْآخَرُ أَعْظَمُ قُوَّةً؛ قُدِّمَ أَنْفَعُهُمَا لِتِلْكَ الْوِلَايَةِ: وَأَقَلُّهُمَا ضَرَرًا فِيهَا؛ فَيُقَدَّمُ فِي إمَارَةِ الْحُرُوبِ الرَّجُلُ الْقَوِيُّ الشُّجَاعُ - وَإِنْ كَانَ فِيهِ فُجُورٌ - عَلَى الرَّجُلِ الضَّعِيفِ الْعَاجِزِ وَإِنْ كَانَ أَمِينًا؛ كَمَا سُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَد: عَنْ الرَّجُلَيْنِ يَكُونَانِ أَمِيرَيْنِ فِي الْغَزْوِ وَأَحَدُهُمَا قَوِيٌّ فَاجِرٌ وَالْآخَرُ صَالِحٌ ضَعِيفٌ مَعَ أَيِّهِمَا يُغْزَى؟ فَقَالَ: إمَّا الْفَاجِرُ الْقَوِيُّ فَقُوته لِلْمُسْلِمِينَ وَفُجُورُهُ عَلَى نَفْسِهِ؛ وَأَمَّا الصَّالِحُ الضَّعِيفُ فَصَلَاحُهُ لِنَفْسِهِ وَضَعْفُهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَيُغْزَى مَعَ الْقَوِيِّ الْفَاجِرِ».[٩٤]

بين غزوة الخندق وصمود أهل دمشق بوجه التتار عام ٧٠٠هـ

ـــ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يعلمنا دروسا من حرب التتار معركة كسائر المعارك بين الحق والباطل من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة، يبين لنا حال المؤمنين الصادقين، كما يبين لنا حال المنافقين المرجفين المثبطين المخذلين وما هي نهاية المنافقين الوخيمة وعاقبة المؤمنين السعيدة:

١ـــالأحزاب يحيطون بالمسلمين من جميع الجهات:

قال ابن تيمية رحمه الله: وَقَالَ اللَّهُ فِي شَأْنِ الْأَحْزَابِ: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠)} هُنَالِكَ

[٩٣] مجموع الفتاوى، ٥٣٨/٥

[٩٤] مجموع الفتاوى، ٢٥٥/٢٨

ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١)﴾{الأحزاب: ١٠_١١}. وَهَكَذَا هَذَا الْعَامُ. جَاءَ الْعَدُوُّ مِنْ نَاحِيَتِي عُلُوِّ الشَّامِ وَهُوَ شَمَالُ الْفُرَاتِ. وَهُوَ قِبْلِيِّ الْفُرَاتِ. فَزَاغَتْ الْأَبْصَارُ زَيْغًا عَظِيمًا وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ؛ لِعَظْمِ الْبَلَاءِ؛ لَا سِيَّمَا لَمَّا اسْتَفَاضَ الْخَبَرُ بِانْصِرَافِ الْعَسْكَرِ إلى مِصْرَ وَتَقَرَّبَ الْعَدُوُّ وَتَوَجَّهَهُ إلى دِمَشْقَ. وَظَنَّ النَّاسُ بِاَللَّهِ الظُّنُونَا. هَذَا يَظُنُّ أَنَّهُ لَا يَقِفُ قُدَّامَهُمْ أَحَدٌ مِنْ جُنْدِ الشَّامِ حَتَّى يصطلموا أَهْلَ الشَّامِ. وَهَذَا يَظُنُّ أَنَّهُمْ لَوْ وَقَفُوا لَكَسَرُوهُمْ كَسْرَةً وَأَحَاطُوا بِهِمْ إحَاطَةَ الْهَالَةِ بِالْقَمَرِ. وَهَذَا يَظُنُّ أَنَّ أَرْضَ الشَّامِ مَا بَقِيَتْ تُسْكَنُ وَلَا بَقِيَتْ تَكُونُ تَحْتَ مَمْلَكَةِ الْإِسْلَامِ».[٩٥]

٢_الابتلاء والزلزلة ترفع الدرجات:

قال رحمه الله: «قال تعالى : ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾{ الأحزاب: ١١} . ابْتَلَاهُمْ اللَّهُ بِهَذَا الِابْتِلَاءِ الَّذِي يُكَفِّرُ بِهِ خَطِيئَاتِهِمْ وَيَرْفَعُ بِهِ دَرَجَاتِهِمْ وَزُلْزِلُوا بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ الرَّجَفَاتِ مَا اسْتَوْجَبُوا بِهِ أَعْلَى الدَّرَجَاتِ».

٣_النفاق يمنع الأمان:

قال رحمه الله: «قَالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾{الأحزاب:١٢}. الْمَرَضَ وَالنِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ يُوجِبُ الرَّيْبَ فِي الْأَنْبَاءِ الصَّادِقَةِ الَّتِي تُوجِبُ أَمْنَ الْإِنْسَانِ: مِنْ الْخَوْفِ حَتَّى يَظُنُّوا أَنَّهَا كَانَتْ غُرُورًا لَهُمْ كَمَا وَقَعَ فِي حَادِثَتِنَا هَذِهِ سَوَاءٌ».

٤_الاستسلام مصلحة موهومة:

قال رحمه الله: «قَالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾{الأحزاب:١٣} وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ عَسْكَرَ بِالْمُسْلِمِينَ عِنْدَ سَلْعٍ وَجَعَلَ الْخَنْدَقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ. فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: لَا مُقَامَ لَكُمْ هُنَا؛ لِكَثْرَةِ الْعَدُوِّ. فَارْجِعُوا إلى الْمَدِينَةِ. وَقِيلَ: لَا مُقَامَ لَكُمْ عَلَى دِينِ مُحَمَّدٍ فَارْجِعُوا إلى دِينِ الشِّرْكِ. وَقِيلَ: لَا مُقَامَ لَكُمْ

[٩٥] مجموع الفتاوى، ٤٤٦/٢٨

عَلَى الْقِتَالِ فَارْجِعُوا إلى الِاسْتِئْمَانِ وَالِاسْتِجَارَةِ بِهِمْ. وَهَكَذَا لَمَّا قَدِمَ هَذَا الْعَدُوُّ كَانَ مِنْ الْمُنَافِقِينَ مَنْ قَالَ: مَا بَقِيَتْ الدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ تَقُومُ فَيَنْبَغِي الدُّخُولُ فِي دَوْلَةِ التَّتَارِ. وَقَالَ بَعْضُ الْخَاصَّةِ: مَا بَقِيَتْ أَرْضُ الشَّامِ تُسْكَنُ؛ بَلْ نَنْتَقِلُ عَنْهَا إمَّا إلى الْحِجَازِ وَالْيَمَنِ وَإِمَّا إلى مِصْرَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ الْمَصْلَحَةُ الِاسْتِسْلَامُ لِهَؤُلَاءِ».

٥_عورتنا تنكشف بانهزامنا:

قال رحمه الله: «قَالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾{الأحزاب:١٣}. وَكَانَ قَوْمٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَذْمُومِينَ يَقُولُونَ - وَالنَّاسُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ سَلْعٍ دَاخِلُ الْخَنْدَقِ وَالنِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ فِي آطَامِ الْمَدِينَةِ -: يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ. أَيْ مَكْشُوفَةٌ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعَدُوِّ حَائِلٌ. قَالَ اللَّهُ تعالى: {وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ} لِأَنَّ اللَّهَ يَحْفَظُهَا {إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا} فَهُمْ يَقْصِدُونَ الْفِرَارَ مِنْ الْجِهَادِ وَيَحْتَجُّونَ بِحُجَّةِ الْعَائِلَةِ. وَهَكَذَا أَصَابَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْغُزَاةِ. صَارُوا يَفِرُّونَ مِنْ الثَّغْرِ إلى الْمَعَاقِلِ وَالْحُصُونِ وَإِلَى الْأَمَاكِنِ الْبَعِيدَةِ كَمِصْرِ. وَيَقُولُونَ: مَا مَقْصُودُنَا إلَّا حِفْظَ الْعِيَالِ وَمَا يُمْكِنُ إرْسَالُهُمْ مَعَ غَيْرِنَا. وَهُمْ يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ. فَقَدْ كَانَ يُمْكِنُهُمْ جَعْلُهُمْ فِي حِصْنِ دِمَشْقَ لَوْ دَنَا الْعَدُوُّ. كَمَا فَعَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ كَانَ يُمْكِنُهُمْ إرْسَالُهُمْ وَالْمُقَامُ لِلْجِهَادِ».[٩٦]

٦_المنافق الجبان مآله في صف الكفار:

قال رحمه الله: «قَالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾{الأحزاب:١٤} فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ الْمَدِينَةُ مِنْ جَوَانِبِهَا ثُمَّ طُلِبَتْ مِنْهُمْ الْفِتْنَةَ - وَهِيَ الِافْتِتَانُ عَنْ الدِّينِ بِالْكُفْرِ أَوْ النِّفَاقِ - لَأُعْطُوا الْفِتْنَةَ. وَلَجَاؤُوهَا مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ. وَهَذِهِ حَالُ أَقْوَامٍ لَوْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْعَدُوُّ الْمُنَافِقُ الْمُجْرِمُ. ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُمْ مُوَافَقَتَهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ الْخُرُوجِ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ - وَتِلْكَ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ - لَكَانُوا مَعَهُ

[٩٦] نفس المصدر السابق

عَلَى ذَلِكَ. كَمَا سَاعَدَهُمْ فِي الْعَامِ الْمَاضِي أَقْوَامٌ بِأَنْوَاعٍ مِنْ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا مَا بَيْنَ تَرْكِ وَاجِبَاتٍ وَفِعْلِ مُحَرَّمَاتٍ إمَّا فِي حَقِّ اللَّهِ وَإِمَّا فِي حَقِّ الْعِبَادِ».

٧_خيانة العهد من خصال المنافقين:

قال رحمه الله: «قَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾{الأحزاب:١٥} وَهَذِهِ حَالُ أَقْوَامٍ عَاهَدُوا ثُمَّ نَكَثُوا قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ. فَإِنَّ فِي الْعَامِ الْمَاضِي وَفِي هَذَا الْعَامِ: فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ كَانَ مِنْ أَصْنَافِ النَّاسِ مَنْ عَاهَدَ عَلَى أَنْ يُقَاتِلَ وَلَا يَفِرَّ ثُمَّ فَرَّ مُنْهَزِمًا لَمَّا اشْتَدَّ الْأَمْرُ».[٩٧]

٨_الفرار من الجهاد لا يؤخر أجلا والثبات لا يعجله:

قال رحمه الله: «قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾{الأحزاب:١٦} فَأَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّ الْفِرَارَ لَا يَنْفَعُ لَا مِنْ الْمَوْتِ وَلَا مِنْ الْقَتْلِ. فَالْفِرَارُ مِنْ الْمَوْتِ كَالْفِرَارِ مِنْ الطَّاعُونِ. وَالتَّجْرِبَةُ تَدُلُّ عَلَى مِثْلِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ. فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فَرُّوا فِي هَذَا الْعَامِ لَمْ يَنْفَعْهُمْ فِرَارُهُمْ؛ بَلْ خَسِرُوا الدِّينَ وَالدُّنْيَا وَتَفَاوَتُوا فِي الْمَصَائِبِ. وَالْمُرَابِطُونَ الثَّابِتُونَ نَفَعَهُمْ ذَلِكَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا حَتَّى الْمَوْتُ الَّذِي فَرُّوا مِنْهُ كَثُرَ فِيهِمْ. وَقَلَّ فِي الْمُقِيمِينَ. فَمَا مَنَعَ الْهَرَبُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ. وَالطَّالِبُونَ لِلْعَدُوِّ وَالْمُعَاقِبُونَ لَهُ لَمْ يَمُتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَلَا قُتِلَ؛ بَلْ الْمَوْتُ قَلَّ فِي الْبَلَدِ مِنْ حِينِ خَرَجَ الْفَارُّونَ. وَهَكَذَا سُنَّةُ اللَّهِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا».[٩٨]

٩_متاع الدنيا قليل:

قال رحمه الله: «قَالَ تعالى: ﴿وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يَقُولُ: لَوْ كَانَ الْفِرَارُ يَنْفَعُكُمْ لَمْ يَنْفَعْكُمْ إِلَّا حَيَاةً قَلِيلَةً ثُمَّ تَمُوتُونَ».

---

[٩٧] نفس المصدر السابق
[٩٨] نفس المصدر السابق

١٠_احذروا المثبطين:

قال رحمه الله: «قَالَ تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) ﴾{الأحزاب:١٨}. قَالَ الْعُلَمَاءُ: كَانَ مِنْ الْمُنَافِقِينَ مَنْ يَرْجِعُ مِنْ الْخَنْدَقِ فَيَدْخُلُ الْمَدِينَةَ فَإِذَا جَاءَهُمْ أَحَدٌ قَالُوا لَهُ: وَيْحَك اجْلِسْ فَلَا تَخْرُجْ. وَيَكْتُبُونَ بِذَلِكَ إلى إخْوَانِهِمْ الَّذِينَ بِالْعَسْكَرِ: أَنْ ائْتُونَا بِالْمَدِينَةِ فَإِنَّا نَنْتَظِرُكُمْ. يُثَبِّطُونَهُمْ عَنْ الْقِتَالِ. وَكَانُوا لَا يَأْتُونَ الْعَسْكَرَ إلَّا أَلَّا يَجِدُوا بُدًّا. فَيَأْتُونَ الْعَسْكَرَ لِيَرَى النَّاسُ وُجُوهَهُمْ. فَإِذَا غَفَلَ عَنْهُمْ عَادُوا إلى الْمَدِينَةِ.... كَمَا جَرَى فِي هَذِهِ الْغُزَاةِ. فَإِنَّ أَقْوَامًا فِي الْعَسْكَرِ وَالْمَدِينَةِ وَغَيْرِهِمَا صَارُوا يُعَوِّقُونَ مَنْ أَرَادَ الْغَزْوَ وَأَقْوَامًا بُعِثُوا مِنْ الْمَعَاقِلِ وَالْحُصُونِ وَغَيْرِهَا إلى إخْوَانِهِمْ»[٩٩].

١١_حال المثبطين في السلم والحرب:

قال رحمه الله: «قَالَ تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) ﴾{الأحزاب:١٨}. مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ يُشْبِهُونَ الْمُغْمَى عَلَيْهِ وَقْتَ النَّزْعِ. فَإِنَّهُ يَخَافُ وَيُذْهِلُ عَقْلَهُ وَيَشْخَصُ بَصَرُهُ وَلَا يَطْرِفُ. فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ يَخَافُونَ الْقَتْلَ. {فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} وَهَذَا السَّلْقُ بِالْأَلْسِنَةِ الْحَادَّةِ يَكُونُ بِوُجُوهٍ: تَارَةً يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ: هَذَا الَّذِي جَرَى عَلَيْنَا بِشُؤْمِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ دَعَوْتُمْ النَّاسَ إلى هَذَا الدِّينِ وَقَاتَلْتُمْ عَلَيْهِ وَخَالَفْتُمُوهُمْ؛ فَإِنَّ هَذِهِ مَقَالَةُ الْمُنَافِقِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ الصَّحَابَةِ. وَتَارَةً يَقُولُونَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ أَشَرْتُمْ عَلَيْنَا بِالْمُقَامِ هُنَا وَالثَّبَاتِ بِهَذَا الثَّغْرِ إلى هَذَا الْوَقْتِ وَإِلَّا فَلَوْ كُنَّا سَافَرْنَا قَبْلَ هَذَا لَمَا أَصَابَنَا هَذَا. وَتَارَةً يَقُولُونَ - أَنْتُمْ مَعَ قِلَّتِكُمْ وَضَعْفِكُمْ - تُرِيدُونَ أَنْ تَكْسِرُوا الْعَدُوّ»[١٠٠].

---

[٩٩] نفس المصدر السابق

[١٠٠] نفس المصدر السابق

١٢ــحال الجبان بعد نصر المؤمنين:

قال رحمه الله: «قَالَ تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ {الأحزاب:٢٠}. فَوَصَفَهُمْ بِثَلَاثَةِ أَوْصَافٍ. أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ لِفَرْطِ خَوْفِهِمْ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَنْصَرِفُوا عَنْ الْبَلَدِ. وَهَذِهِ حَالُ الْجَبَانِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ. فَإِنَّ قَلْبَهُ يُبَادِرُ إلى تَصْدِيقِ الْخَبَرِ الْمُخَوِّفِ وَتَكْذِيبِ خَبَرِ الْأَمْنِ. الْوَصْفُ الثَّانِي: أَنَّ الْأَحْزَابَ إذَا جَاؤوا تَمَنَّوْا أَنْ لَا يَكُونُوا بَيْنَكُمْ؛ بَلْ يَكُونُونَ فِي الْبَادِيَةِ بَيْنَ الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ: إيش خَبَرُ الْمَدِينَةِ؟ وإيش جَرَى لِلنَّاسِ؟ . وَالْوَصْفُ الثَّالِثُ: أَنَّ الْأَحْزَابَ إذَا أَتَوْا وَهُمْ فِيكُمْ لَمْ يُقَاتِلُوا إلَّا قَلِيلًا. وَهَذِهِ الصِّفَاتُ الثَّلَاثُ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ كَمَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَيَعْرِفُهُ مِنْهُمْ مِنْ خَبَرِهِمْ».

١٣ــوصدق الله ورسوله:

قال رحمه الله: «قَالَ تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ {الأحزاب:٢٢}. فَلَمَّا جَاءَ الْأَحْزَابُ عَامَ الْخَنْدَقِ فَرَأَوْهُمْ. قَالُوا: {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ} وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ قَدْ ابْتَلَاهُمْ بِالزِّلْزَالِ. وَأَتَاهُمْ مِثْلَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا لِحُكْمِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ. وَهَذِهِ حَالُ أَقْوَامٍ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ: قَالُوا ذَلِكَ».

قال الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق: «إن شيخ الإسلام كان مجدداً للدين حقاً فقد مارس رحمه الله عامة فرائض الإسلام وأحكامه، وأنزل آيات الكتاب والسنة النبوية على الواقع القائم وكأنها آيات لم تتنزل إلا عليهم، وهذا يدلك على عظمة القرآن الخالد، وعلى أن التاريخ يعيد نفسه قال تعالى : ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾[فصلت: ٤٣].

وقال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾[البقرة: ٢١٤].

وهذا شيخ الإسلام يقول لمعاصريه "ما أشبه الليلة بالبارحة: المؤمنون الصابرون هم المؤمنون، والمنافقون هم المنافقون؛ فكلامهم كلامهم وشبهات أسلافهم هي شبهاتهم: اختلفت الوجوه والأسماء فقط ولكن المواقف هي المواقف". وهذا هو تجديد الدين بمعناه الصحيح جعل القرآن جديداً والسنة جديدة فكأن القرآن والسنة تنزلت عليهم، فأصبحت الآيات تحكي واقعاً قائماً لا ماضياً غائباً .... فالجهاد في سبيل الله فريضة ماضية إلى يوم القيامة وهو أعظم شعائر الإسلام وأعلاها قدراً، والعالم الحق هو المجاهد في سبيل الله».[١٠١]

خاتمة: وصايا شيخ الإسلام ابن تيمية لأهل ثورة الشام اليوم

١ــ بالصبر واليقين تنال الإمامة بالدين:

كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين)[١٠٢] بالصبر: لأن هذا البلاء لا ينفك عن الدعوة إلى الله عز وجل، مصداقاً لقول ورقة بن نوفل للنبي صلى الله عليه وسلم: (ما جاء رجل بمثل ما جئت به إلا عودي)[١٠٣]، إذاً: العداء ملازم لدعوة الأنبياء، فيحتاج إلى الصبر على الناس والصبر على العذاب، واليقين: أن الله لن يخذلنا ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]. هذا هو الذي يوصلك، وهذا كان الظاهر جداً في حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تبارك وتعالى .

فالناس أمام البلاء أصناف، منهم من يدخل البلاء فيخرج وهو أكثر صلابة وقوة، ومنهم من إذا دخل احترق، والفرق بين هذا وذاك: ما عند هذا من اليقين والصدق، وخلو ذاك

---

[١٠١] انظر شيخ الإسلام ابن تيمية والعمل الجماعي لعبدالرحمن بن عبدالخالق

[١٠٢] الشهادة الزكية الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، ص:٣٥

[١٠٣] صحيح البخاري (٣) باب: - بَابُ بَدْءِ الوَحْيِ

من هذا اليقين والصدق. فمن كان يعرف أن زيد بن حارثة رضي الله عنه سيكون بعد سنين من حادثة الطائف قائد أول جيش يخرج لجهاد الروم خارج المدينة ومن كان يعرف أن ابن مسعود رضي الله عنه سيكون بعد سنين من شهوده حادثة وضع سلا الجزور على كتفي النبي صلى الله عليه وسلم واضعا قدميه على جثة أبي جهل؟ فلا نستغرب كيف هزم ابن تيمية رحمه الله التتار مع كل عدتهم وعتادهم وتاريخهم المشبع بالدماء والمجازر: إنه الصبر واليقين.

والصبر على البلاء سبب جلب معية الله الخاصة لعباده المؤمنين. التي يقتحم بها المخاطر ويواجه بها الأعداء ويقابل الشدة بالرضى فيصير صاحبه جواداً لا يكبو، وصارماً لا ينبو، وجنداً غالباً لا يهزم، وحصناً حصيناً لا يهدم،. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة:١٥٣]. والنتيجة هي الفلاح والنصر بعد الصبر والمصابرة والرباط في سبيل الله. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة:٢٤]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠]. وقال تعالى: {وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦]. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران:١٢٠].

٢ــ كن رَجل مِلّة لا رَجل دَولة:

هذا كان جواب الشيخ رحمه الله للمداحين وكان صادقا فيه[١٠٤]

ــ لقد كان بإمكان شيخ الإسلام رحمه الله أن ينقلب على الأمراء المماليك مستثمرا حاضنته الشعبية وتأييد الشعب له، لكنه لم يكن صاحب طموح للسيادة ساعيا لها، بل كان هدفه توحيد كلمة المسلمين وحشدهم لحمل راية الجهاد والتصدي لحملات العدوان على المسلمين، وهذا ما تحقق بالفعل ونجح ابن تيمية رحمه الله في الخروج من أزمة التتار بتوفيق من الله عز وجل منتصرا مهيبا محبوبا. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ

[١٠٤] يَقُول للمداحين لَهُ أَنا رجل مِلَّة لَا رجل دولة _ العقود الدرية، ص: ١٩٣

اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ، خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ، إِذَا فَقِهُوا، وَتَجِدُونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيَةً"[١٠٥]. وعَنِ الحَسَنِ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَمُرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ، فَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيها، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا"[١٠٦]. وهنا نجد أثر الإعانة الربانية لشيخ الإسلام رحمه الله في حربه وجهاده وتحريضه وثباته فكانت دلالة على زهده في الإمارة وكراهيته لها، ومع أن حب الرياسة من أخطر أمراض القلوب فلم يتمكن من قلب الشيخ رحمه الله لقوة في الإيمان وصلابة في العقيدة. وهذا ما يجب على العلماء أن يقتدوا به فليس من الضرورة أن يكون العالم بنفس الوقت مديرا إداريا وقائدا عسكريا ووزير دولة وقاضيا شرعيا فيستغل مكانته في المجتمع ويغريه مرض حب الظهور ليتحول من رجل ملة إلى رجل دولة، لقد كان شيخ الإسلام رحمه الله مؤثرا في كل قضايا عصره تأثيرا جوهريا ومع ذلك لم يكن صاحب منصب لأنه وظف كل حياته لله تبارك وتعالى، كان يعمل لخدمة دين الله عز وجل باذلا كل وقته وطاقته في سبيل ذلك، ترى فيه قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ [الأنعام:١٦٢] كل حياته لله عز وجل. وهنا تجد الجواب عن السؤال المحير: أين وجد الشيخ الوقت للتصنيف، والوقت للدعوة، والوقت للمناظرات، والوقت لقضاء حاجات العوام، والوقت للجهاد والرباط، والوقت لمواجهة السلاطين بالحجة والحق والتحريض على الجهاد في سبيل الله؟

---

[١٠٥] [تعليق مصطفى البغا]
٣٣٠٤ (١٢٨٨/٣) -[ش أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب خيار الناس رقم ٢٥٢٦. (معادن) جمع معدن وهو ما يستخرج من الجواهر ووجه التشبيه أن المعادن تشتمل على جواهر مختلفة من نفيس وخسيس وكذلك الناس مختلفون في الشرف وكرم النفس والسلوك. (خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام) من كان منهم ذا شرف في الجاهلية ازداد شرفا ورفعة بالإسلام. (فقهوا) فهموا أصول الدين وأحكامه. (هذا الشأن) أي الإمارة والخلافة. (أشدهم له كراهية) أي الذي يكرهه ولا يطمع فيه فإذا اختير له وأسند إليه أعانه الله تعالى عليه وسدد خطاه ووفقه. (ذا الوجهين) هو المنافق الذي يسعى بين الطائفتين ويأتي كلا بوجه يختلف عما يأتي به الآخر]
[١٠٦] صحيح البخاري، (٧١٤٧) _ بابُ مَنْ سَأَلَ الإِمَارَةَ وُكِلَ إِلَيْهَا

٣_مراعاة الائتلاف هُوَ الْحق:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهَا: "أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ لَمَّا بَنَوْا الكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلاَ تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: «لَوْلاَ حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالكُفْرِ لَفَعَلْتُ".[١٠٧]

قال الشيخ رحمه الله: «وَمَعَ ذَلِك فمراعاة الائتلاف هُوَ الْحق فيجهر بهَا بِالْمَصْلَحَةِ راجحة ويسوغ ترك الْأَفْضَل لتأليف الْقُلُوب كَمَا ترك النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم بِنَاء الْبَيْت على قَوَاعِد ابراهيم خشيَة تنفير قُرَيْش نَص الْأَئِمَّة كأحمد على ذَلِك فِي الْبَسْمَلَة وَفِي وصل الْوتر وَغَيره كَمَا فِيهِ الْعُدُول عَن الافضل إلى الْجَائِز مُرَاعَاة للائتلاف أَو لتعريف السّنة وأمثال ذَلِك وَالله أعلم».[١٠٨]

وهذه فقه عظيم له أثر كبير وقت الأزمات والمحن ولا بد لمدارس الصحوة الفكرية أن تعمل به كسنة نبوية أخذ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم تطبيقا عمليا في تقديم المفضول على الفاضل لتأليف القلوب، وما أحوجنا إليه اليوم مع هذه الحملة الصليبية على أمة الإسلام، حيث صار التنازل عن المصلحة الخاصة لأجل المصلحة العامة بضاعة يندر وجودها والموالاة على الأشخاص والجماعات هي السائدة يعادي من عادت جماعته ويوالي من والاها. ولخطورة هذا الأمر على الجهاد في سبيل الله والنفرة بين المسلمين شبهه شيخ الإسلام رحمه الله بالتتار أنفسهم، قال رحمه الله: وَمَنْ حَالَفَ شَخْصًا عَلَى أَنْ يُوَالِيَ مَنْ وَالَاهُ وَيُعَادِيَ مَنْ عَادَاهُ كَانَ مِنْ جِنْسِ التتر الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ وَمِثْلُ هَذَا لَيْسَ مِنْ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تعالى وَلَا مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِثْلُ هَؤُلَاءِ مِنْ عَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ؛ بَلْ هَؤُلَاءِ مِنْ عَسْكَرِ الشَّيْطَانِ[١٠٩]

---

[١٠٧] صحيح البخاري (١٥٨٣) _بَابُ فَضْلِ مَكَّةَ وَبُنْيَانِهَا
[١٠٨] مختصر الفتاوى المصرية، ص: ٥٢
[١٠٩] مجموع الفتاوى، ٢٠/٢٨

لقد كان الشيخ رحمه الله واعيا وعالما أنه من السهولة أن تؤكل الأمة عندما تكون شيعاً وأحزاباً، فيضرب بعضها ببعض، ولكن لا يمكن أن تصبح الأمة لقمة سائغة إذا اتحدت في جسد إسلامي، فلا ينتصر الجيش المسلم وفيه من صفة عدوه ألا وهي التعصب للأشخاص. فسعى لذلك سعيا حثيثا فساحة العمل لدين الله عز وجل ميدان الدعوة إلى الله فيه متسع للجميع والأمة بحاجة كل أبنائها ولن تنتصر الأمة إلا إذا تحول المسلمون إلى ورشة عمل يكمل بعضهم بعضا كل يعرف مكانه ومكانته فالوضع لم يعد يحتمل مزيدا من التشرذم والتنافر.

٤_الْمحبَّة مستلزمة للْجِهَاد:

هذه العبارة[١١٠] قالها رحمه الله بعد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة:٥٤].

وقال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[الحشر: ٩، ١٠].عندما انتصر رحمه الله على التتار كان للمؤمنين كالولد لوالده وكان على الكافرين كالأسد على فريسته، يعلمنا درسا عظيما جدا من دروس النصر وهو: لا بد أن تحبوا بعضكم في الله من أجل أن تنتصروا ، محبة خالصة لوجه الله تعالى لا رياء فيها، فكيف نجاهد عدونا ونحن لا نحب بعضنا.

[١١٠] أمراض القلوب وشفاؤها، ص:٦٤

قال رحمه الله: «وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْمُؤْمِنَ تَجِبُ مُوَالَاتُهُ وَإِنْ ظَلَمَك وَاعْتَدَى عَلَيْك وَالْكَافِرُ تَجِبُ مُعَادَاتُهُ وَإِنْ أَعْطَاك وَأَحْسَنَ إلَيْك؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ لِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَيَكُونُ الْحَبُّ لِأَوْلِيَائِهِ وَالْبُغْضُ لِأَعْدَائِهِ وَالْإِكْرَامُ لِأَوْلِيَائِهِ وَالْإِهَانَةُ لِأَعْدَائِهِ وَالثَّوَابُ لِأَوْلِيَائِهِ وَالْعِقَابُ لِأَعْدَائِهِ. في السنة النبوية نجد النبي صلى الله عليه وسلم يربي صحابته الكرام على أسمى معاني المحبة لبعضهم ولقد فقه الصحابة أهمية الأخوة بين بعضهم البعض دون ارتباط بنسب، ولا مال، ولا مصلحة، فهموا أنهم لن تكون لهم أمة، ولن يعبدوا الله حق عبادته، ولن يقوموا بأمر الاستخلاف كما ينبغي أن يكون، إلا بأخوة بينهم».[١١١]

بقول الشيخ عبد الله عزام رحمه الله: (الحب في الله هو عنوان فلاح الجماعات والأمم)[١١٢]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: "أَحِبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغِضْ لِلَّهِ، وَعَادِ فِي اللَّهِ، وَوَالِ فِي اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللَّهِ إِلَّا بِذَلِكَ".[١١٣]

٥- النصر للدولة العادلة أيا كانت:

لا شك أن إقامة العدل وأداء الحقوق لأهلها من أسباب بقاء الدول وتفوقها وغلبتها حتى إن كانت كافرة فالنصر لا يأتي مع الظلم حتى إن كان الظالم مسلما، هذه سنة كونية جعلها الله من أسباب النصر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة (الحسبة): (الجزاء في الدنيا متفق عليه أهل الأرض، فإن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يروى: "الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة).[١١٤]

---

[١١١] مجموع الفتاوى، ٢٠٩/٢٨

[١١٢] من الرسالة التي وجهها الشيخ عبدالله العزام لجماعة الاخوان المسلمين
الرابط: http://www.ammonnews.net/article/72698

[١١٣] رواه الإمام عبدالله بن المبارك في "الزهد" (ص: ١٢٠).

[١١٤] الحسبة في الإسلام ، ص:٧

والعدل على أصوله والذي يعطي كل ذي حق حقه، يجعل المجتمع كتلة واحدة في وجه أي غزو على المجموع سواء غزو معنوي أو فكري أو مادي. فالعدل يجعل الفرد يشعر أن هذا الغزو الذي يستهدف مجتمعه إنما هو يستهدفه هو بذاته ويستهدف قلب موطنه ومأمنه الذي يتنعم به، كما أن الفرد يشعر بوجوب الدفاع عن مجتمعه الذي حفظ له كل حقوقه وأكرمه بكل صدق وإنصاف بحسب قدرته التي تحت سيطرته.

وهذا بخلاف الظلم الذي يفكك المجتمع ويشتته ويجعله متناحرًا لدرجة يصبح فيها هدفاً سهلاً لكل غزو معنوي أو فكري أو مادي، حيث يسعى الفرد للانتقام والتشفي من الذين اعتدوا على حقوقه المعنوية أو نهبوا حقوقه المادية، وهنا يسهل اختراق المجتمع وكشف أسراره وضربه من الداخل. وهنا نجد استجابة الناس لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لما عرف من عدله وإنصافه ووقوفه في وجه الظالم ومحاربته فوقفوا بجانبه لأنهم يرون أنهم يقفون إلى جانب العدل ينصرونه ليحافظوا عليه.

فهرس المراجع والمصادر

١ــ نظرات في حياة شيخ الإسلام وبطله ابن تيمية الحراني الدكتور، عبد الحليم محمد الحسين، شبكة الألوكة

تاريخ الطباعة: ١٤٢٢هـ ــ٢٠٠١م

ــترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله للدكتور عبد الله بن صالح بن عبد العزيز الغصن ــ من موقع طريق الإسلام ــ رابط المادة: http://iswy.co/e16bpu

٢ــ الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، عمرُ بنُ عليّ بنِ موسى بنِ خليلٍ البغداديُّ الأزجيّ البزَّارُ، سراجُ الدينِ أبو حفصٍ (المتوفى: ٧٤٩هـ) ،ت: زهير الشاويش ، الناشر: المكتب الإسلامي ــ بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٠

٣ــ المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)،ت: محمد فؤاد عبد الباقي ،الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت

٤ــتفسير مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (المتوفى: ١٠٤هـ)،ت: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، الناشر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

٥ــ جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، نعمان بن محمود بن عبد الله، أبو البركات خير الدين، الآلوسي (المتوفى: ١٣١٧هـ)،الناشر: مطبعة المدني، عام النشر: ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

٦ــ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)،الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ ،مع الكتاب: شرح وتعليق د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة - جامعة دمشق

٧ــ معجم الشيوخ الكبير للذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)،ت: الدكتور محمد الحبيب الهيلة، الناشر: مكتبة الصديق، الطائف - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
٨ــالإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)،ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩ هـ)،حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط ، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
٩ــ المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)،المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين - القاهرة
١٠ــمجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١هـ/١٩٩٥م
١٠ــالمستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، جمعه ورتبه وطبعه على نفقته: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ
١١ــالعقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن يوسف الدمشقي الحنبلي (المتوفى: ٧٤٤هـ)، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار الكاتب العربي - بيروت
١٢ــ الكتاب: البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)
المحقق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى ١٤٠٨، هـ - ١٩٨٨ م

١٣ــمدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م
١٤ــالرد الوافر، محمد بن عبد الله (أبي بكر) بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين، الشهير بابن ناصر الدين (المتوفى: ٨٤٢هـ)، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٣
١٥ــ ذيل طبقات الحنابلة، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م
١٦ــ رفع الملام عن الأئمة الأعلام، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، طبع ونشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض - المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م
١٧ــالكتاب: سنن ابن ماجه، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)
تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي
١٨ــمنهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

١٩ــ العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، الإمام العلامة النظار المجتهد محمد بن إبراهيم الوزير اليماني المتوفى سنة ٨٤٠ هـ، حققه وضبط نصه، وخرج أحاديثه، وعلّق عليه: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م
٢٠ــمختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية، محمد بن علي بن أحمد بن عمر بن يعلى، أبو عبد الله، بدر الدين البعليّ (المتوفى: ٧٧٨هـ)، المحقق: عبد المجيد سليم - محمد حامد الفقي،الناشر: مطبعة السنة المحمدية - تصوير دار الكتب العلمية
٢١ــ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين (المتوفى: ٧٤٩هـ)،الناشر: المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ
٢٢ــالشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، مرعي بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد الكرمي المقدسي الحنبلي (المتوفى: ١٠٣٣هـ)، نجم عبد الرحمن خلف، الناشر: دار الفرقان ، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤
٢٣ــاقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)،المحقق: ناصر عبد الكريم العقل،الناشر: دار عالم الكتب، بيروت، لبنان،الطبعة: السابعة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م
٢٤ــتقريظ للحافظ ابن حجر العسقلاني على الرد الوافر،محمد بن أحمد بن محمد بن خير الله، أبو الفضل، صفيّ الدين الحنفي الأثري الحسيني البخاري (المتوفى: ١٢٠٠هـ)،المحقق: محمد بن إبراهيم الشيباني، الناشر: مكتبة ابن تيمية - الكويت
٢٥ــأمراض القلوب وشفاؤها،تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ) الناشر: المطبعة السلفية – القاهرة،الطبعة: الثانية، ١٣٩٩هـ

٢٦_الفكر التربوي عند ابن تيمية (بحث في أصول التربية العقدية والاجتماعية الإسلامية كما يفسرها شيخ الإسلام ابن تيمية: دراسة تحليلية ناقدة) ، الدكتور ماجد عرسان الكيلاني ، مكتبة دار التراث،المدينة المنورة _ ١٤٠٧هـ_ ١٩٨٦م _ ٢٧_ الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، جمعه كلا من: محمد عزيز شمس _ علي بن محمد عمران
إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد ، طباعة: دار علم الفوائد _مكة المكرمة _ ١٤٢٢هـ.
٢٨_ الحسبة في الإسلام، أو وظيفة الحكومة الإسلامية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)،الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى
٢٩_ رجال الفكر والدعوة في الإسلام ،السيد أبي علي الحسني الندوي ،تعريب: سعيد الاعظمي الندوي ،طباعة: دار القلم _ دمشق _١٤٢٣هـ _ ٢٠٠٢م
٣٠_ ابن تيمية وفكره السياسي لقمر الدين خان، طباعة: الفلاح _ الكويت _ ١٩٨٥م
٣١_ ابن تيمية حياته وعصره وآراؤه الفقهية، محمد أبي زهرة، طباعة: دار الفكر العربي
٣٢_ موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم_ أبو الأعلى المودودي_ دار الفكر الحديث _لبنان _الطبعة الثانية_١٣٨٦هـ_١٩٦٧م
٣٣_ الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي، المتوفى سنة: ١٠٣٣هـ، طباعة: دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان،١٤٠٦هـ_١٩٨٦م
٣٤_ مقاطع من اليوتيوب: الشيخ عبد الله عزام - إن كلماتنا ستبقى ميتةً لا حراك فيها هامدة أعراسا من الشموع / أصحاب الدعوات
المراجع غير العربية:
١_مقدمة عن نشاط ابن تيمية المناهض للمغول، جون هوفر
John Hoover _ Introduction to Ibn Taymiyya's anti-Mongo

٢_ الغزوات المغولية لبلاد الشام وفتاوى ابن تيمية الثلاث في مكافحة المغول، دينس ايغل
The Mongol Invasions of Bilâd al-Shâm by Ghâzân Khân and Ibn Taymîyah's Three
Denise Aigle_"Anti-Mongols" Fatwas
٣_ تقييم القاعدة من خلال تعاليم ابن تيمية، كميل مولكر
Assessing al-Qaeda from the Teachings of Ibn Taymiyya
Camille Mulcaire, Oct 15 2013, 3015 views
الرابط: http://www.e-ir.info/2013/10/15/assessing-al-qaeda-from-the-teachings-of-ibn-taymiyya/
٤_ نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع، هنري لاووست، ترجمة محمد عبد العظيم علي، طباعة: دار الأنصار، القاهرة. ١٩٧٩م
٥_ مقالة: مسلم اللاهوت، هنري لاووست، الرابط: https://www.britannica.com/biography/Ibn-Taymiyyah

والحمد لله رب العالمين
٢٠ _ رجب _ ١٤٣٩هـ الموافق: ٢٠١٨/٤/٧م